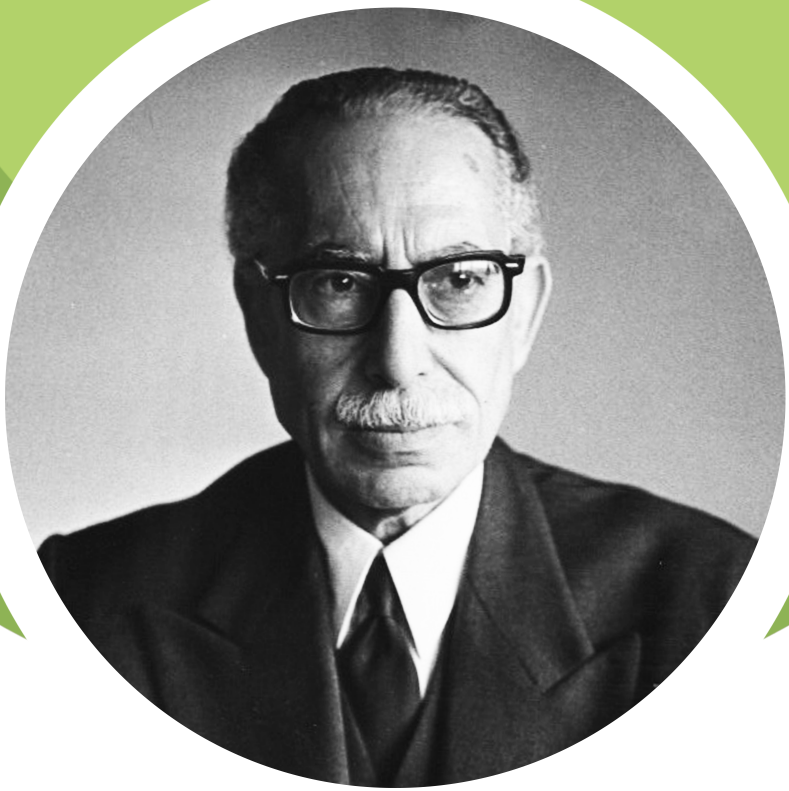

يقظة الفكر

توفيق الحكيم

يقظة الفكر

تأليف
توفيق الحكيم

هنـــداوي

يقظة الفكر

توفيق الحكيم

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٩٤٧ ٧

صدر هذا الكتاب عام ١٩٨٦.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٦.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لأسرة السيد الأستاذ توفيق الحكيم.

المحتويات

في الفكر ٩
إيقاظ التفكير ١١
قضية الفن القصصي في القرآن ١٥
شعب الله بغير الله ٢٩
الساقية تدور ٣١

في المرأة ٣٣
فتياتنا في الحرب ٣٥
بيني وبين «خصومي الشرفاء المعقولين»! ٣٩
المرأة والأسد ٤٣
المسوخات ٤٧
المرأة بعد ٢٠٠٠ سنة ٥١
سلاح المرأة الذي لا تستعمله ٥٥
أسعد زوجين ٥٧
القبح الجميل ٥٩
الصحافة امرأة ٦١

في الشباب ٦٣
حطِّمْ بيت الزجاج ٦٥
ناشئون حائرون ٦٩

تربية الرأي العام ٧٣
تبعاتنا نحو الشباب ٧٥

في الفن ٧٩
الجاحظ ينظر إلينا ٨١
كومبارس مسرحيتي من الرهبان ٨٥
ألف ليلة وليلتان ٨٩
«فن الزحلقة» ٩٣
أشخاص رواياتي يطالبونني بإطعامهم ٩٧
جنون وجنون ١٠١

«صرير القلم اليوم ... هو نفير الإصلاح غدًا.»

توفيق الحكيم
آخر ساعة ١٩ فبراير ١٩٢٩م

في الفكر

إيقاظ التفكير

جاءتني رسالة من أديب فاضل يقول فيها:

«... قرأتُ في إحدى المجلات نقدًا عنيفًا لقصة من قصصك، فشرعتُ لتوِّي أُعِدُّ دفاعي في حرارة وإيمان ... وما انتهيتُ منه حتى عجبتُ لنفسي ... فقد تذكرتُ أني لم أقرأ هذه القصة بعدُ! ولكنني مع ذلك برمت وصحت في ثورة انفعال: لماذا يصمت الحكيم هذا الصمت كله؟ لقد كانت زلة. وإني لأستميحك مغفرةً؛ لأن ثقتي بك لا يمكن أن تنال منها مقالات إلخ ...»

إني أشكر هذا القارئ الكريم على هذه الثقة الغالية باعتباري إنسانًا ... ولكني أرفض هذه الثقة باعتباري كاتبًا ... إن مهمة الكاتب ليست في حمل القارئ على الثقة به، بل في حمله على التفكير معه ... ما أرخص الأدب لو أنه كان مثل السياسة طريقًا إلى اكتساب الثقة! لا ... إن الأدب طريق إلى إيقاظ الرأي ... لا أريد من قارئي أن يطمئن إليَّ، ولا أريد من كتابي أن يريح قارئي ... أريد أن يطوي القارئ كتابي فتبدأ متاعبه، فيسد النقص الذي أحدثتُ.

أريد من قارئي أن يكون مكملًا لي، لا مؤمنًا بي ... ينهض ليبحث معي، ولا يكتفي بأن يتلقى عني ... إن مهمتي هي في تحريك الرءوس ... الكاتب مفتاح للذهن ... يعين الناس على اكتشاف الحقائق والمعارف بأنفسهم لأنفسهم.

إن مهمَّة الكاتب في نظري هي تربية الرأي؛ لذلك أرى من واجبي أن أصمت دائمًا «هذا الصمت كلَّه» عن نقد الناقدين، فالناقد صاحبُ رأي ... فكيف أصدُّه وأنفِّره، بينما مهمَّتي في إيجاده وتشجيعه؟

قد يقول قائل إن من النقاد من يفسد فكرة الأثر الفني بجهله أو تجاهله وبغرضه أو تحامله ... ولكني أقول: حتى هذا النوع من النقاد يعاونون على تربية الرأي من حيث

لا يدرون ولا يريدون ... فالمطلع على النقد أحد فريقين: فريق يُسلِّم ويُصدِّق دون بحث أو تمحيص ... وهذا فريق من لا رأي له، أو من لم يهتم بعدُ بتربية الرأي فيه ... وفريق لا يقبل التصديق والتسليم قبل الرجوع إلى الأثر الفني يطالعه حُرًّا من كل قيد ليستخلص رأيًا فيه بنفسه لنفسه.

هذا الفريق الأخير — على قِلَّته في بلادنا — هو أساس المجتمع الحُر، الذي يسعى الأدب جاهدًا في إقراره وتقويته.

وما دام هدفنا تربية الرأي، فيجب أن نترك الناس أحرارًا ينقدون ... وبغير ذلك يكون مثلنا مثل ذلك الذي يُكمم أفواه أطفاله، ويضع في أيديهم وأقدامهم الأغلال؛ خشية أن يملأوا البيت صياحًا، وينهالوا على التحف تحطيمًا.

إنه لخير عندي أن يُحطِّم أطفالي تُحَفي، وأن يؤذوا سمعي، من أن أشل عضلاتهم وأعطل نُموَّهم ...

إن الكاتب الذي يظن أن عمله انهار لقولة قائل، وجهوده ضاعت لكلمة ناقد، يهب جزعًا فزعًا يدافع ويفند، لهو كاتب يخلط بين شخصه وواجبه.

إن واجب الكاتب يُحتم عليه أن ينزع شخصه من عمله ... وأن يدع هذا العمل لمصيره ينطلق وحده يُحدِث أثره في الناس.

وخير أثر يمكن أن يُحدِثه عمل في الناس، هو أن يجعلهم يفكرون تفكيرًا حرًّا، وأن يدفعهم إلى تكوين رأي مستقل وحكم ذاتي.

الفن — إذن — أداة من أدوات خلق الذاتية.

وهو لا يستطيع أن يؤدي هذه الرسالة إلا في مجتمع حُر.

لذلك لم يخطئ أولئك الذين قالوا: «الفن هو الحرية» ... يجب ألا يقوم في المجتمع حائل يحول دون تحقيق ذاتية الإنسان.

ويجب ألا يقتصر عمل الفنان على إمتاع الحس وإراحة الخاطر وتخدير الشعور، بل يجب أن يرمي إلى إيقاظ التفكير، وتأكيد الذاتية، وتدعيم الشخصية.

لذلك نرى الفن لا يزدهر عادةً إلا في مجتمع بزغت فيه عوامل الإحساس بحرية الرأي وذاتية الفرد.

ونرى الفن لا يموت عادةً إلا في مجتمع خُنِقَت فيه حرية الفرد، وصُودِر فيه التعبير عن الرأي؛ لأن الفنان يجد عمله معطلًا عندئذٍ من ناحيتين: من ناحيته هو الذي لا يستطيع أن ينشئ فنًّا يوحي بتفكير حر، ومن ناحية الناس الذين وقفت عقولهم، في هذا الجو الخانق، عن النمو.

فالجو الخانق — إذن — يُصيب بالعطب والعطل — في عين الوقت — أداةَ الإرسال وأداة التلقي!

وبهذا يتم الشلل الفكري في الأمة، وتكفُّ شخصيتها عن النمو والنضج، وتظل بلا حراك في طور بدائي من الرقي البشري!

من أجل ذلك أرى أنبل جهاد للكاتب هو في سبيل المحافظة على أداة الفكر والرأي ... لأن هذه الأداة هي في الكيان المعنوي بمثابة القلب؛ مضخة يجب أن تعمل حُرة على الدوام؛ لتكفل النمو والنضج والرقي للنوع الإنساني.

(أخبار اليوم ٢ / ٤ / ١٩٤٩م)

قضية الفن القصصي في القرآن

(١) رسالة جامعية يطالبون بحرقها

قامت في مصر وإنجلترا في وقت واحد حركة غريبة؛ وهي مناقشة الكتب المنزلة، وبحثها على أسس علمية، ومحاولة اتهامها بالمبالغة، وبأن ليس كل ما فيها من قصص ومعجزات يطابق الحقيقة والتاريخ الصحيح.

فعندنا قامت قيامة بعض العلماء على الأستاذ محمد أحمد خلف الله؛ لأنه وضع رسالة قدَّمها إلى كلية الآداب بجامعة فؤاد (القاهرة) عن «الفن القصصي في القرآن الكريم»، وقال فيها إن «قصصه لم تعتمد على أصل من واقع الحياة أو من التاريخ، بل قد يكون ذلك من عمل الفن الذي لا يعنيه الواقع التاريخي، وإنما ينتج عمله ويبرز صورته على أساس الحقيقة الفنية والقدرة على الابتكار والتبديل»!

حرق الرسالة

ولقد طالب البعض بحرق الرسالة على مرأًى ومشهد من أساتذة وطلبة كلية الآداب، وطالب آخرون بفصل الأستاذ خلف الله ...

ورد الأستاذ خلف الله وفند هذه التهم ... وأبدى استعداده لحرق الرسالة لو ثبت اتهام المتهمين من أنه يدعو إلى الكفر أو يخرج بالناس إلى الإلحاد.

وقد طالبت إحدى الصحف باتخاذ إجراءات حاسمة، وقالت: إذا ثبت أن ما نُقِل عن رسالة «الفن القصصي في القرآن الكريم» قد ورد فيها كما نُقِل، فلا يكفي أن يحرقها مؤلفها بيديه أو بيدي غيره على مرأًى ومشهد من الأساتذة والطلاب، بل لا بد أولًا أن يعلن رجوعه إلى الإسلام، وأن يجدد عقد نكاحه على زوجته إن كان متزوجًا، وأن يتوب إلى الله

توبة نصوحًا يَحسُن بها إسلامه في مستأنف حياته، وأن يقوم بكل ما يقوم به من ارتكب جريمة الرِّدَّة عن دين الإسلام ثم تاب إلى الله منها.

سوابق في مصر

وليست هذه الحركة هي الأولى من نوعها في مصر؛ فقد سبق أن أَلَّف الأستاذ علي عبد الرازق وزير الأوقاف (حاليًّا) كتابًا عن «الإسلام وأصول الحكم»، فقامت قيامة الأزهر، واجتمعت هيئة كبار العلماء وفصلته، واستقال الوزراء الأحرار الدستوريون من وزارة زيور باشا؛ احتجاجًا، وأقيل وزير العدل من منصبه — وكان عبد العزيز فهمي باشا — لهذا السبب.

وحدث مرة أخرى أن أَلَّف الأستاذ الدكتور طه حسين كتابًا عن «الشعر الجاهلي» شكَّك فيه في بعض المعتقدات، قامت قيامة البرلمان، وأراد مجلس النواب إخراجه من منصبه، فهدد عدلي باشا رئيس مجلس الوزراء بالاستقالة؛ حمايةً للبحث العلمي.

ومن العجيب أنه في نفس الوقت الذي تقوم فيه هذه الحركة في مصر تقوم حركة أخرى مشابهة لها في لندن!

فقد تلقينا من مراسل «أخبار اليوم» في لندن الرسالة التالية:

دخلت الأزمة الدينية في إنجلترا مرحلة جديدة؛ فقد نشرت جريدة الساندي بيكتوريال «من صحف العمال» وتبلغ مقطوعيتها ثلاثة ملايين نسخة، الاستفتاء التالي لقرائها:

يقول المطران بارنز: إن الشباب في عصر العلم يؤيده في عدم إيمانه بمعجزات المسيح ... فما رأيكم؟

وهذه أول مرة في التاريخ يُستفتى فيها الشعب في مسألة دينية خطيرة كهذه.

هل كانت مريم العذراء عذراء؟

وقد أثار المطران الإنجليزي بارنز في كتابه «قيام المسيحية» موضوع أن المسيح قام بعد صلبه، وقال: إن قصة القيامة قصة وهمية، كما أنه نفى أن السيدة مريم كانت عذراء!

وأكد أنها لم تكن عذراء، وأن سبب هذا الاعتقاد يرجع إلى سوء ترجمة كلمة عبرية معناها «فتاة صغيرة»، فاختلط الأمر على الناس، وترجموا الكلمة العبرية إلى «عذراء».

المعجزات إشاعة سخيفة

وقال المطران: إن أبحاثه أظهرت أن كل المعجزات هي إشاعات عامية سخيفة، وأن الفن القصصي لعب دورًا في صياغتها.

كما نفى المطران قصص ولادة بيت لحم والهرب إلى مصر.
ونفى أن المسيح مات وهو شاب، وأثبت أنه مات في سن الخمسين ...
وقال المطران إن المسيح لم يكن إلهًا، ولكنه كان رجلًا صالحًا يحسُن الاقتداء به ...

رأي رئيس الأساقفة

وقد أثار كتاب المطران ثورة في الكنيسة، وطالبه أسقف كنتربري رئيس أساقفة الكنيسة الإنجليزية بالاستقالة، فرفض، وصرح كبير الأساقفة في الصحف بما يأتي:

– إذا آمنت بمعتقدات المطران بارنز فلتؤمن، وليكن المسيح معك ... ولكنها ليست معتقدات الكنيسة.

وقالت الصحف الإنجليزية إن هذا لا يصح أن يكون الرد على أبحاث المطران، وأشارت إلى أن مؤتمر الكنيسة الذي اجتمع عام ١٩٢٢م، واستمر ١٤ عامًا قرر عدم الأخذ بحرفية الإنجيل، وقد اختلف الأعضاء في مسألة مريم العذراء، ولكنهم قرروا أن «القيامة» أساس من أسس المسيحية.

الاشتراكية هي السبب

وقامت قيامة دوائر المحافظين لهذه الحركة، وقالت إنها نتيجة طبيعية لانتشار مبادئ الاشتراكية والشيوعية التي تحاول أن تحطِّم كل شيء، وفي مقدمة ذلك الأديان.

وقد أثيرت مسألة عودة تركيا إلى الدين، وانتصار الجنرال ديجول، وقيل: إن هذا انتصار للدين، في وقت بدأت فيه الموجة المضادة الأخرى تحاول أن تسجل انتصارات لا دينية في إنجلترا.

صاحب الرسالة يدافع عن نفسه «أتحرُّرٌ في الأزهر ورجعيةٌ في الجامعة؟!»

إلى الأستاذ توفيق الحكيم

هذه قضية النكسة الجامعية أعرضها عليكم وعلى القراء:

في مايو الماضي (١٩٤٧م) قدمتُ رسالة لنيل درجة الدكتوراه في الآداب موضوعها «الفن القصصي في القرآن الكريم».

أحال عميد كلية الآداب هذه الرسالة إلى لجنة الفحص، فآمن بها بعضٌ، وأنكرها آخرون.

كانت حُجة المنكرين الظاهرة الخروج على الدين. ولما كنت أعلم بنوايا القوم ومقاصدهم الخفية، فقد ألقيت بالرسالة بين يدَي نفر من رجال الدين؛ ليذكروا لنا حكم الله في مُفسِّر كتاب الله.

وهنا ظهرت الفروق الحقيقية بين العلماء.

أما الأستاذ الشايب — أستاذ الأدب في كلية الآداب — فقد تقدَّم غير هيَّاب ولا وَجِل، وأفتى بأن صاحب هذا البحث قد ارتدَّ عن دين الإسلام، مع أن الأستاذ الشايب لم يتعلَّم من الدين إلا ما يُمكِّنه من التدريس في المدارس الابتدائية لِبابَي الوضوء والصلاة!

وأما الأستاذ الشيخ محمود شلتوت — عضو هيئة كبار العلماء والمتخصص في الدين — فقد توقف؛ حتى يتثبَّت من حكم الله في مفسر كتاب الله.

ولم يقف عند هذا الحد، بل أشرك معه في الرأي المفتي السابق وعضو هيئة كبار العلماء الأستاذ الفاضل الشيخ عبد المجيد سليم.

ثم انتهينا إلى أن المُفسِّر لا يخرج عن الدين إلا إذا خالف الإجماع في تفسيرٍ قد تواتر تواتُرًا عمليًّا، أو أنكر أن تكون هذه الآية أو تلك من كتاب الله.

أما غير ذلك فهو مجتهد؛ إن أخطأ فله أجر، وإن أصاب فله أجران.

ولَمَّا لم يكن القصص القرآني محلَّ إجماع من المفسرين فضلًا عن المجتهدين من علماء الدين والفقهاء.

ولَمَّا لم يكن القصص القرآني محل تواتُر عملي لقضية من قضايا الدين أو قاعدة من قواعد الإسلام.

فإن المتحدِّث عنه أو المخالف فيه يكون مجتهدًا إن أخطأ فله أجر، وإن أصاب فله أجران.

فما رأي الأستاذ الحكيم فيما بين هؤلاء وهؤلاء؟

أليس يرى معي أن ذلك إيذان بالتحرر من ربقة الجمود في الأزهر، وأنه دليل الرجعية في كلية الآداب؟

إن الدراسة الجامعية لا تستقيم إلا مع الحرية، وإنا لنعجب كيف يكون الأساتذة الجامعيون قادة الرجعية في البيئات العلمية! وكيف لا يشعرون بأن في ذلك الخطر — كل الخطر — على التقدم العلمي في هذه الديار؟!

ولعل العجب يأخذ حده ويبلغ منتهاه حين نعلم أن تلك الرجعية لا يقرها الدين، ولا يرضى من رجاله العلماء.

هذه هي قضية النكسة الجامعية عرضتُها عليكم وعلى القراء، ولكلٍّ منهم أن يعلق على ما يشاء بما شاء.

والسلام عليكم ورحمة الله.

محمد أحمد خلف الله
كلية الآداب – جامعة فؤاد

إذا صح ما جاء في هذا الدفاع من أن علماء الدين في بلادنا قد أصدروا هذا الحكم المتحرر، وأن رجال الجامعة قد أفتوا بذلك الرأي المتأخر … فإن الأمر يدعو حقًّا إلى العجب! … ولقد اطلعنا — في عين الوقت — على تلك البرقية التي تروي خبر المطران بارنز وإنكاره لمعجزات المسيح، فلم يعد يدهشنا أن نسمع بقيام أساتذة جامعة لندن يفتون بأن ذلك المطران يستحق الحرق حيًّا!

ما الذي حدث الآن بالضبط في عقول الناس؟ … رجال العلم الروحي يريدون الخروج إلى نور المنطق العقلي، ورجال العلم العقلي يريدون الدخول إلى معبد النور الإلهي! إنه — ولا شك — عصر الجشع … كل طائفة لا تقنع بما في يدها، وتنظر إلى ما في يد الآخرين! حتى في المسائل العقلية والدينية كل هيئة تعتقد أن «الحقيقة عند غيرها!»

إني أفهم موقف علماء الإسلام … فهم يُفتون طبقًا لقواعد مُقرَّرة في هذه الرسالة الجامعية، وشاء لهم اتساع الأفق أن يضيئوا لنا النصوص القديمة بأضواء جديدة … دون أن يحيدوا عن روح الدين … وجوهر العقيدة. ولكن الذي لستُ أفهمه هو موقف أساتذة الجامعة العصرية الذين يحكمون بالكُفر على طالب، ويطفئون بأيديهم الجامدة مشعل الحرية الفكرية الذي هو صلب عملهم وعمود رسالتهم.

ولئن استطعتُ أيضًا أن أفهم هؤلاء، فإني لا أستطيع أن أفهم أبدًا موقف المطران الإنجليزي بارنز الذي يحلل المسيحية كما يحلل تاجر الزيوت فن «روفائيل»، أو نجار المسرح فن «شكسبير»!

لماذا يهدم المطران الوقائع التاريخية في الدين؟ وهو الذي يجب أن يعلم أن «الحقيقة» في الدين أسمى من التاريخ ومن المنطق ومن كل العلوم العقلية؛ لأن شمس «الحقيقة الدينية» لا يمكن أن توضع تحت مصباح الذهن البشري!

هل يستطيع ناقد أن ينال من فن «روفائيل» لو أثبت لنا أن زيت لوحاته كان زيت خردل أو زيت خروع؟! وهل يستطيع باحث أن يطعن في فن «شكسبير» لو برهن لنا على أن «جولييت» ماتت موتًا طبيعيًّا في سن الخمسين أو أن «روميو» عندما تزوَّجها لم يجدها عذراء! … ما قيمة كل هذا بالنسبة إلى «الحقيقة الفنية»؟!

كذلك ما قيمة اكتشافات المطران بارنز بالنسبة إلى «الحقيقة الدينية»؟!

إذا كان هذا المطران رجل دين حقًّا، لَفهم ذلك، ولكنه — فيما يبدو — لم يُخلَق للدين … ولكن لمهنة أخرى … وإني أرشحه لمهنة «الصحافة»؛ فإنه — ولا شك — قد خُلِق لها دون أن يشعر!

ولا أرى أسخف من القول إن مبادئ الاشتراكية والشيوعية هي المسئولة عن هذه النزعات، وإنها تحاول تحطيم كل شيء حتى الأديان؛ ذلك أن الأديان — ولا سيما الإسلام والمسيحية — ما نهضت إلا على أُسُس من الاشتراكية … وما من شيء حطَّم جوهر الأديان فعلًا غير الرأسمالية المتطرِّفة، ومع ذلك فهي التي تزعم أنها تحتضن الأديان وتحتكر حمايتها، بأساليبها البارعة في الاحتكار؛ لتستند إليها بعدئذٍ، وتجعلها أداة استغلال.

(أخبار اليوم ٢٥ / ١ / ١٩٤٧م)

(٢) الأستاذ المشرف على الرسالة يقول: «إنها حق … وألقوا بي في النار»

عندما عرض عليَّ صاحب رسالة «الفن القصصي في القرآن» قضيته التي سمَّاها «قضية النكسة الجامعية» عجبتُ لأمر واحد: هو أن عالمين جليلين من علماء الدين: الشيخ عبد المجيد سليم، والشيخ شلتوت أفتيا له بالأجر، وأن أساتذة الجامعة حكموا عليه بالكُفر! ولقد توجَّه إليَّ بقوله: «فما رأي الأستاذ الحكيم فيما بين أولئك وهؤلاء؟ … أليس يرى معي أن ذلك إيذان بالتحرُّر من ربقة الجمود في الأزهر، وأنه دليل الرجعية في كلية الآداب؟».

ولكني تلقيتُ بعد ذلك من العالِمين الفاضلين إنهما لم يطَّلعا على نصِّ رسالته الجامعية، وإنما أدليا بفتوى عامة في سؤال عام، ولقد أثار هذا الموضوع عواصف من كل جانب، ولقد أمطرني البريد رسائل من كل إنسان … وما من واحد قرأ حرفًا من الرسالة الجامعية … حتى ولا أنا … بالطبع! … ولكن الأصوات ترتفع من حولي تصطخب وتصيح … بعضها يطالب بحرق الرسالة التي لم يَقرأ … والبعض يطالب بتجميد هذا البحث الذي لم يَقرأ أيضًا!

وأنا في وسط الطوفان ... لا أدري أين الحقائق؟ وأجد من يعُدُّني مسئولًا عن الحكم في هذا الأمر ... وأنا لا أضع يدي على وثائق ... ولا أملك من الوقائع ما يجيز لي التسرُّع في إصدار الأحكام.

لهذا رأيتُ خير الأمور أن أستوضح أصحاب الشأن عن جلية الأمر ... ولأرجع لحظةً إلى سابق عهدي القضائي ... فالموضوع الذي نحن بصدده أخطر من أن يمر بلا تحقيق، فهو موضوع يتعلق بحياتنا الفكرية ... بل أكثر من ذلك وأعمق ... إنه يتعلق بالصلة التي يجب أن تقوم بين حياتنا الفكرية المثمرة المتجددة، وحياتنا الروحية الآمنة المستقرة!

تذكرتُ أن «رسالة جامعية، توضع لنيل الدكتوراه، لا بد لها — طبقًا للتقاليد الجامعية — من أن تُعَدَّ تحت إشراف أستاذ جامعي ... فكيف ترك الأستاذ المشرف هذه الرسالة تُعَدُّ، إذا وجد في موضوعها ما يمس جوهر الدين؟!»

إن المسئول الحقيقي إذن هو الأستاذ المُشرِف ... بل هو على الأقل الشاهد الأول الذي يجب أن يتكلم.

وتحرَّيتُ عنه، فقيل لي إنه الأستاذ أمين الخولي الأستاذ بكلية الآداب ... فطلبته بالتليفون، وسألته عما يعرف في الموضوع، فأرسل إليَّ الخطاب الآتي نصه:

إلى الأديب الجليل

تحيةً وسلامًا، سألتَني عن جلية الأمر في رسالة «الفن القصصي في القرآن الكريم» فهأنذا أدَعُ الوقائع تتحدث:

منذ حوالي عشرين عامًا وأنا أدرس القرآن في كلية الآداب من حيث هو كتاب العربية الأكبر، وقد اطمأننتُ إلى أن هذا الفهم الأدبي له يجب أن يتقدم على كل رغبة في استفادة عقائد منه، أو أخلاق، أو أحكام. فاتخذتُ هذا الدرس منهجًا أدبيًّا خالصًا أذعته، ومضيت أضعه بين يدي طلبة الجامعة، وأفرغ من نقدهم له وتَمثُّلهم إياه، ثم أتقدم لدرس موضوع من القرآن تطبيقًا عليه. أدعهم بعده ليتابع الدرسَ من له رغبة خاصة في درس هذا الكتاب العظيم.

وقد جعل غير واحد من الطلاب دراسته العليا في موضوعات قرآنية، فكتب واحد رسالته للماجستير في «نشأة التفسير واتجاه تطوره»، وآخر في «وصف القرآن ليوم الحساب»، وثالث في «إعجاز القرآن»، كما كتب محمد خلف الله أفندي رسالته للماجستير أيضًا في «جدل القرآن»، واختار رسالته في الدكتوراه في «قصص القرآن».

واسمح لي هنا باستطراد يسير؛ هو أننا حاولنا ردَّ درس الجامعة للبلاغة إلى الميدان الأدبي، وإبعاده عن الفلسفة، وما أصاب البلاغة من جمودها وجفافها، فغيرنا من هذا الدرس ما غيَّرنا، ودعونا البلاغة «فن القول»؛ لنُذكِّر دائمًا بأن الأدب قول فني لا يخرج منهج درسه عن الأفق الوجداني، فكان إيثارنا لهذا سبب تسمية رسالة اليوم «الفن القصصي في القرآن الكريم».

تقدَّم خلف الله لدرس «قصص القرآن» على المنهج الأدبي الذي لا يمكن أن تعنى كلية الآداب بغيره. والقصص في هذا المنهج لون من ألوان البيان، وأسلوب من أساليب الأداء قد مضى فيه كتاب العربية الأعظم، ومعجزتها القولية على خطة له؛ هي التي حاول «خلف الله» تعرُّفها في رسالته تفصيلًا … فعرض أول ما عرض لما بين التاريخ والقصص من صلة، وما جرى عليه القرآن في هذا، واطمأنَّ أخيرًا إلى أنه ليس قصصًا لتعليم التاريخ، ولا سرد وقائعه مُرتَّبة مستوفاة لتُعرَف منها الحقائق التاريخية، ولذلك لا يلزم أن تكون كل حوادث القصص القرآني قد وقعت، بل منها ما هو تصوير وتمثيل للمعاني، واطمأنَّ لهذه النتيجة بالاعتماد على مقررات دينية لا أُثقِل عليك ببيانها، فهي تتصل بالمُحكَم والمتشابه، وما إلى ذلك، وبحسبي أن أقرر لك أنها مقررات فرغ الأستاذ الإمام منذ أكثر من أربعين عامًا من تقرير ما هو أوسع منها وأبعد مدًى؛ إذ انتهى من أن القصص القرآني فيه ما هو مَثَل لا قصة واقعة، ومن أن للمؤمن حق تأويل هذا القصص على أساس أن القرآن يُعبِّر عن المعاني، ويصورها بالحكاية وأسلوب الحوار، كما فرغ من أن وجود شيء في قصِّ القرآن لا يقتضي صحته؛ لأنه يحكي من حال الأقدمين الصحيح والفاسد، والصادق والكاذب، ولأنه يجري تعبيراته على معروفهم ومنظورهم، ولو كان خرافيًّا، كوصف الشيطان في قوله تعالى: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ ومس الشيطان في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ فليس في هذا وصف لصحيح من أمر الشيطان أو مسِّه … بل أوَّل الأستاذُ الملائكةَ بالأرواح والقوى، والشياطين وإبليس بدواعي الشر، وعرض في بيان طويل لتأويل قصة آدم كلها في سورة «البقرة»، ثم أثر التأويل على التسليم بحقيقة هذه الأشياء والأحداث، مقررًا أن المُؤوِّل أعلى كعبًا في الإيمان ممن يُسلِّم؛ لأنه أكثر اطمئنانًا، وأقل تعرضًا للشكوك.

تلك هي أم المسائل التي أنكرها من قرأوا الرسالة في الجامعة، ولم يجتمعوا لمناقشةٍ في ذلك كما يقتضي نظام تأليف اللجان لتقدير الرسائل، ثم ما لبثوا أن اشتعلوا في العناد، فانطلقوا من طلبهم «تعديل بعض فصول الرسالة مع تقديرهم لجوانبها السليمة»، إلى طلب «تطبيق أحكام الردَّة» على صاحبها!

وتسرَّب الأمر إلى الخارج — بِيَد من لا أعرف — فتلقَّف ناس أخبارًا طائرة، وحكموا على ما لم يروا، ولم يقرأوا، بل أخفوا ما عُرِف ونُشِر، فكتب من سمَّوا أنفسهم «جبهة العلماء» أن خبرًا نُشِر في عددَي ٧٤١، ٧٤٢ من الرسالة عن بحث «خلف الله» ثم لم يُكذَّب، فأصبح الأمر جد خطير، وعدُّوه وباءً أشنع من وباء الكوليرا … مع أن عدد الرسالة ٧٤٣ يحمل مقالًا طويلًا في التكذيب، وبيان استحالة مخالفة البحث للدين.

وتوالى مثل هذا الاتهام على غير أساس، و«خلف الله» يُكذِّب، ويُبيِّن، ويتحدى، فيضيع صوته في ضجيج عامِّي أهوج، وردد من ذلك المُضحِك المُبكِي، فلعل الأديب الفاضل قرأ ما كتبتْه هذا الأسبوع مجلة أدبية تلوم الجامعة على أن قبلت البحث في القرآن تحت عنوان الفن … ولعله قرأ ما أذاعه مفتٍ قديم من أن صاحب البحث قال إن القرآن فن وصانعه فنان، فهو كافر، ولا شك عند مسلم بكفره! فما الفن يا ترى عند هؤلاء؟

أيها الأديب الجليل.

إن المحنة — كما ترى — عقلية، وهذا أهون جوانبها … ثم هي خُلُقية واجتماعية: خُلقية لأسباب أيسرها أن الذين قرأوا الرسالة تقوَّلوا عليها بما يستحيل أن يكون فيها. واجتماعية تدفع مصر في سُلم الرقي من أعلى إلى أسفل: فجامعتها ترفض اليوم ما كان يُقرَّر بين جدران الأزهر وينشر منذ اثنين وأربعين عامًا، وتُخضِع البحث للأوهام لا للإسلام و… و…

وأزهرها يسمع ويرى رجلًا يُعلن «أن ربه الله، ورسوله محمد، ودينه الإسلام، وكتابه القرآن، وأنه إنما يفهم في القرآن السماوي فهمًا ما، بل يفهم في متشابهه فهمًا ما»، فلا يقال له أخطأتَ أو أسرفتَ أو … أو … بل يقال له — قبل أي تحرٍّ أو تثبُّت — كفرت، ولماذا؟ لأنك جعلت القرآن فنًّا!

تلك إجابتي عما سألتَ، فالأمر إنكار للحق الطبيعي للحي في أن يفكر ويقول، وإنه لَحَقٌّ عرفنا الإسلام يقرره ويحميه، فلو لم يبقَ في مصر والشرق

أحد يقول إنه حق، لقلتُ وحدي وأنا أُقذَف في النار، إنه حقٌّ حقٌّ، لأَبرَأ أمام ضميري، ولا أشارك في وصم الإسلام اليوم هذه الوصمة.

والله يحمي الحق وهو خير الحاكمين.

أمين الخولي

شهادة الأستاذ الخولي خطيرة كما يرى الرأي العام، وإني أحب أن ألفت النظر إلى نقطة الخطورة فيها: تلك هي قوله إن الأستاذ الإمام محمد عبده انتهى إلى مثل هذه الآراء منذ اثنين وأربعين عامًا! إذا كان هذا القول صحيحًا — كما يؤكد الأستاذ الخولي — فلنا أن نطلب تعليلًا لما صرنا إليه، وعلى المسئولين من رجال الدين أن يوضحوا الموقف.

فإنه لا يرضيهم أن نرجع اليوم في عهدهم القهقرى ... بعد نهضة إسلامية بعثها الأستاذ الإمام.

أما رجال الجامعة، فقد اتهمهم زميلهم الأستاذ الخولي في عقليتهم وخُلقهم، تهمة لا يدفعها عنهم غير دليلهم ... وهي — إن صحت — لكانت قديرة على هدم «التعليم الجامعي» من أساسه، واقتلاع أهدافه من جذورها!

اللهم لا تخيب أملنا كله فيما حسبناه نهضتنا!

وبعدُ؛ فعلى الرغم من ذلك ... لا أحب أن أبادر أو يبادر معي الرأي العام بالحكم قبل أن يُلِمَّ بأطراف الموضوع ... ويسمع على الأقل قول مَن تناوَلهم الأستاذ الخولي بالاتهام!

(أخبار اليوم ١ / ١١ / ١٩٤٧)

(٣) أطالب رئيس الحكومة النقراشي باشا بالاستقالة[١]

طلبتُ إلى الرأي العام في الأسبوع الماضي أن يتريث معي، ولا يتسرع في إصدار حكم، قبل أن يسمع — على الأقل — كلام مَن تناولهم الأستاذ أمين الخولي بالاتهام، عندما أعلن في ختام بيانه — وهو أستاذ الأدب الإسلامي في الجامعة — «إن المحنة عقلية، وهذا أهون جوانبها

[١] فزع رئيس الحكومة النقراشي باشا من كلمة «الاستقالة» ... وخاطب رئيس التحرير: مصطفى أمين ... غاضبًا من هذه الكلمة، فقال له مصطفى أمين إنه يحترم كلمة الكاتب، وما كان يمكنه أبدًا أن يحذفها.

... ثم هي خُلقية واجتماعية: خُلقية لأسباب؛ أيسرها أن الذين قرأوا في «الكلية» رسالة «الفن القصصي في القرآن الكريم» تقوَّلوا عليها بما يستحيل أن يكون فيها ... واجتماعية تدفع مصر في سُلم الرقي من أعلى إلى أسفل، فجامعتها ترفض اليوم ما كان يُقرَّر بين جدران الأزهر ويُنشر منذ اثنين وأربعين عامًا ... وتُخضِع البحث للأوهام لا للإسلام و... و...

هذا الاتهام الصريح لجامعتنا من أستاذ بها، وعضو لجنة فحص الرسالة فيها ... كان لا بد أن يعقبه بيان من المسئولين في هذه الجامعة ... وهذا ما كنت أنتظره وينتظره معي الرأي العام الذي يتتبع باهتمام هذا الموضوع الخطير ... ولكن الذي حدث هو أن الأستاذ أحمد الشايب أحد أعضاء لجنة فحص الرسالة وأستاذ الأدب بالجامعة، اتصل بي وأخبرني أنه يُعِدُّ بيانًا يوضِّح به حقيقة الأمر ... غير أنه عاد في اليوم التالي واتصل بي أيضًا؛ ليُخبرني — آسفًا — أنه مُنِع عن الكلام منعًا باتًّا ... وأنه مُرغَم إرغامًا على الاكتفاء بتقديم هذا الخطاب الآتي نصه:

سيدي الأستاذ الحكيم

بعد التحية، قد كنتُ على وعد أن أكتب إليك بيانًا لحقيقة الأمر في موضوع «الفن القصصي في القرآن الكريم»، ولردِّ هذه التهم التي وُجِّهت إليَّ، ولكني مُنعْتُ من الجهات الرسمية من الكتابة في هذه المسألة، وأحب أن أقول لك إني لم أتهم أحدًا بالارتداد عن دين الإسلام، ولا أفتيتُ بذلك، وكل ما في الأمر أني عرضتُ المآخذ التي تُثير الظن في هذه النقطة على الأستاذ المُشرِف، وتركتُ له الحكم والتقدير. وعلى كل حال، فإن هذه المسألة كلها من حق الجامعة؛ تقضي فيها بما ترى وفقًا لتقاليدها، وما كنا نحب أبدًا أن تنزل إلى ميدان الصحافة، فتثير هذا الجدل، وتُشوِّش الأذهان، وسيعلم الناس حقيقة الأمر ومصيره عما قريب.

أحمد الشايب

وهذا كل ما انتهى إليه الموضوع!

أستاذ يتهم الجامعة المصرية بأنها تخنق الفكر، وتدفع مصر في سلم الرقي من أعلى إلى أسفل، فتلوذ الجامعة بالصمت ... ويقوم أستاذ فيها يريد توضيح الحقيقة، فتضع الجهات الرسمية كفَّها على فمه! ولقد علمتُ أن هذه الجهات الرسمية هي السلطات الخارجة عن «الجامعة»!

وبالأمس رأينا موظفًا كبيرًا يتهم وزارة المالية في نزاهتها وكفايتها، فتناولت الجهات الرسمية تقريره هو الآخر، ولفَّته بحرص واحتياط في أكفان الصمت.

أترانا أمام أسلوب واحد في الحكم اليوم؟ … كل إنسان يصفع الجهات الرسمية على خدِّها الأيمن تدير له الخد الأيسر صامتةً، على شرط ألا يرغمها على الكلام، أو يضطرها إلى إجراء تحقيق، أو يَحمِلها على كشف حقيقة أمراضها في وضح النهار؟!

مهما يكن من أمر هذا الأسلوب في السياسة والإدارة، فإن على الجهات الرسمية أن تفتح فمها بإيضاحٍ لحقيقة هذا الحدث … والموضوع الآن لم يعد مخفيًّا عن الناس؛ فالصحف تخوض في الأمر … والرأي العام مُوزَّع بين فجيعتين: فجيعة في الجامعة المصرية التي كان يَعُدُّها روح النهضة الفكرية في الشرق … وفجيعته في النهضة الدينية التي كان يحسب «الأستاذ الإمام» قد بعثها نهائيًّا، وأقام منارتها راسخة على صخرة الإسلام.

وقَع هذا الحدث، وتبعه ذلك الاتهام، فاطلع الناس على هذه الكارثة في حياتنا العقلية والروحية؛ فجامعتنا — لو صحت التهمة — ليست أرقى من كُتَّاب قرية، ومنارة نهضتنا الدينية قد سقطت منطفئةً في بحار الظلمات، بعد أربعين سنة من حياة «الإمام»!

أمر خطير … لست أدري هل تشعر بخطورته «الجهات الرسمية»؟! أو إنها ستعجب لو وصفنا إياه بالخطورة، وستبتسم ماضيةً في أسلوبها، ناعمةً بشعارها: «الصمت من ذهب»، مُصدِّقة مؤمنةً بهذه الكلمة في كل الأحوال، مكتفيةً بالإغداق من هذا «الذهب» بغير حساب تملأ به الجيوب والعقول والنفوس والآمال!

وأظن من الضروري أن نُذكِّرها بجهات رسمية أخرى وُجِدَت في مصر منذ نيف وعشرين عامًا كان لها في مثل هذا الموقف تصرُّف أخشى أن تصفه «جهاتنا» اليوم بالجنون أو الحمق … فلقد ترك الحكمَ وزراءُ من بينهم عبد العزيز فهمي باشا؛ احتجاجًا على خنق حرية البحث العلمي؛ بسبب كتاب «الإسلام وأصول الحكم» لعلي عبد الرازق، كما هدد عدلي يكن — وكان رئيسًا للحكومة — بتقديم استقالته؛ حمايةً لحرية البحوث الجامعية؛ بسبب كتاب «الشعر الجاهلي» لطه حسين.

أكان هؤلاء الرجال هازلين يوم وقفوا هذا الموقف؟ … أم كانوا يعلمون أنهم يضعون بذلك أول حَجَر في النهضة الفكرية لهذا الشرق؟!

ولنا اليوم أن نتساءل: أين ذهبت جهود أولئك الأبطال جميعًا؟ وفيم كانت تضحياتهم في سبيل البحث العلمي؟! هل كان يخطر في بال أحد أن الجامعة التي بدأت تلك البداية، تنتهي إلى هذه النهاية؟!

نحن الآن لا ندري على التحقيق ماذا جرى لهذه الرسالة الجامعية «الفن القصصي في القرآن الكريم»؟

الجامعة لا تريد أن تُصدر بيانًا في الأمر ... لأن الجهات الرسمية تضع على فمها الكمامة المشهورة!

هل رفضت الجامعة هذه الرسالة؟ هل هي تراوغ وتماطل إلى أن تهدأ العاصفة، فتستبعدها في صمت وسكون؟ هل هي حائرة مُحرَجة لا تدري ما تصنع في ورطتها، ولا تهتدي إلى حقيقة مهمتها؟!

كان إذن على وزير المعارف — وهو الرئيس الأعلى للجامعة — أن يوجِّه جامعته إلى واجبها. وأن يبيح لها التوجه إلى الرأي العام ببيان يُدخِل على النفوس الاطمئنان.

ولكن وزير المعارف هو أيضًا جزء من هذه «الجهات الرسمية» التي تتحلى بذهب «الصمت»!

ممن إذن نطلب إيضاحًا؟!

لو لم يكن وزير المعارف رجلًا جامعيًّا في سالف الأيام لكان له عذر، ولكنه كان من رجال الجامعة الأحرار ... بل كان — فيما أعرف — رجلًا مُشبَعًا بالنزعات المثالية ... ولقد كنا من أربعة عشر عامًا صديقين، يوم كان هو أستاذًا بكلية الحقوق، وكنت أنا مديرًا لإدارة التحقيقات بالمعارف، وكنا نتلاقى في الأسبوع مرات، ولم يكن له همٌّ إلا التفكير في تنشئة جيل الطلبة على البطولة في الأخلاق والفكر والحرية.[٢]

وقد عمل على إنشاء جمعية من طلابه تُحقق هذه الأغراض اتهمتها «الجهات الرسمية» في ذلك العهد بخدمة بعض الأحزاب، وهي تهمة أشهد أنها إفك وزور، وقد طوحت به تلك التهمة بعيدًا عن الجامعة.

ودارت الأيام دورتها، ويد الزمن تنقل صديقنا من مقعد إلى مقعد، حتى ألقت به — آخر الأمر — فوق كرسي الوزارة، ولم نجتمع بعد تلك الأعوام ... ولكني ما نسيتُ قَط صورة ذلك الجامعي المثالي الذي كان يُلهب طلابه حماسةً في ذلك الحين.

أين ذهبت هذه المثُل العليا اليوم؟

وأين تذهب كثير من المبادئ المثالية التي كان ينادي بها كثير من وزرائنا؟

لا أحد يدري!

---

[٢] هو الدكتور عبد الرزاق السنهوري.

ربما كان هو ذلك «الكرسي»! لا بد أنه يحمل نوعًا من الوباء، خَفِي حتى الآن عن الدواء، يجعل «المُثُل العليا» تنساب من الجالس عليه، وتخرج منه، ساقطة سائلة تحت أقدامه!

وبعد ... فلم نصل إلى شيء بعد ... رسالة ذلك الطالب الذي سأل النجدة لم تزل مُعلَّقة. في يد من؟ يد القدَر أو يد التأخُّر؟ لا أحد يدري!

واتهام ذلك الأستاذ للجامعة بأنها سارت أربعين عامًا إلى الوراء ... لم يزل هو الآخر مكتومًا ... بِيد من؟ يد الحكومة أو يد الجامعة؟ ... لا أحد يدري! ... كل ما أستطيع أن أفعل هو أن أرجو رئيس هذه الحكومة أن يتكلم أو يأذن بالكلام ... وألا يستصغر الأمر ... وأن يعلم أنه ليس هو الذي يخيف الإنجليز بصوته في مجلس الأمن، وبصمته في مجلس الوزراء، ولكن الذي يخيف الإنجليز هو هذه النهضة الفكرية التي اعتقدوا أنها تضيء من الجامعة، وهذه النهضة الروحية التي اعتقدوا أنها سرت في الشرق من مصباح الأستاذ الإمام! ... التقدم الفكري والروحي في مصر هو وحده مفتاح القضية المصرية. وإذا جلت جيوش الاحتلال عن أرضنا ... فلأنها لا تستطيع البقاء طويلًا أمام أشعة من الفكر والعرفان تُعمي أبصارها!

وإذا حسب المستعمرون حساب مصر، فلأنهم يخشون تلك المنارة الفكرية والروحية أن تلاحقهم بأشعتها في العالم العربي! فالأمر خطير يا رئيس الحكومة إلى حدٍّ، أطالبك معه بواحدٍ من أمرين لا ثالث لهما:

إما أن تدرأ في الحال الخطر المحيق بهذه «المنارة الفكرية والروحية»، وإما أن تستقيل!

(أخبار اليوم ٨ / ١١ / ١٩٤٧م)

شعب الله بغير الله

لنرى حقائق الأشياء، يجب علينا أحيانًا أن ننظر إليها من بعيد ... ابتعد عن الصورة قليلًا تجدها فوق الجدار مجلوَّة المعنى واضحة الخطوط ... والبُعد في المكان أو في الزمان سيان ... لهذا يحسُن البحث في ملفات الأمس إذا عرضت مشكلة من مشكلات اليوم ... فلا شيء يُلقي ضوءًا على الحاضر مثل الأشعة التي تأتينا من أغوار الماضي ... إن ما يُكتب الآن عن الصهيونية كثير ... ولكني عنيت بأن أرجع إلى ما كُتِب عنها منذ عشر سنوات ... لأرى وجهها في جو لم يتلبَّد بعدُ بدخان المدافع.

في يوليو عام ١٩٣٨م ذهب إلى فلسطين صحفيان عالميان؛ أحدهما أمريكي، والآخر فرنسي ... طفقا يجوبان في أنحائها، يبحثان ويتحرَّيان متنقلين من مستعمرة صهيونية إلى أخرى، يحادثان أهلها، ويُدوِّنان ما استرعى التفاتهما من ملاحظات ... دون أن يكون لهما من وراء ذلك مأرب غير طلب الحقيقة ذاتها، ونشرها فيما يراسلانه من صحف ... قال أحدهما فيما كتب: «إن الصهيونيين لَيقومون أمام العالم بتجربة مجنونة! وحسْب الذهن الأوروبي أن يرى حياة هؤلاء الصهيونيين في فلسطين لِيدرك هذه الحقيقة ... وماذا نقول في قوم يعيشون حياة مشتركة في أدقِّ تفاصيلها ... يعملون معًا، ويلهون معًا، ويأكلون معًا، وينشئون أطفالهم منذ نعومة أظفارهم بعيدًا عن جوِّ الأسرة؛ حتى يقتلوا فيهم كل عواطف البنوَّة الطبيعية ... وإنهم لَيحيون على هامش الأديان ومبادئ الأخلاق، كأنما يريدون عامدين أن يعارضوا «النوع البشري»! ولقد دفعنا هذا كله إلى أن نقف منهم موقف الحائر المتسائل: ما المقصود من هذا الأسلوب في الحياة؟ وإلى ماذا يؤدي؟ ... أمُفضٍ هو إلى تكوين روح «الجماعة» فيهم أم إلى عودة روح «القطيع»؟! ولماذا كان هذا هو مَثَلهم الأعلى؟ فهل رأى أحد «مثالية» هي أشد عداوة «للإنسان» من هذا الضرب من المثالية؟ وفي الحق إن شيوعيتهم ليست في جوهرها إلا شكلًا من أشكال التعصب الجنسي، هي نوع من

عبادة الذات «اليهودية»! ... إن كل مستعمرة صهيونية ليست سوى فرن مرتفع الحرارة تُصهر فيه وتُصنع فيه «الذات» كأنها ماسة ... ولا بأس — بعد ذلك — من أن تُطرح القيم الإنسانية التي كانت دائمًا موضع التقديس، هملًا في ذلك الفرن كأنها وقود!

لقد لخص «رينيه شووب» — وهو كاتب يهودي — الصهيونية في فلسطين بعبارة واحدة فيها كل الدلالة على حقيقة حالهم:

«إن شعب الله يعود إلى فلسطين بغير الله!»

كذب إذن من قال إنهم من أجل الدين أصرُّوا على إنشاء الوطن القومي في فلسطين! ... ولقد وصف أحد الصحفيين منظر الصهيونيين، وهم في الطريق ذاهبون إلى العمل: «لكأني بهم ذاهبون إلى الحرب»! ... فهم أيضًا تتسم وجوههم بسيما ذلك النوع من التحدي، الذي يبشر بقدوم عهد جديد، لا أثر للرحمة فيه، ولا للذة الروحية، ولا للأحلام، ولا حتى للماضي، وما قيمة الشرق إذن بغير الماضي؟ ... هذا الماضي الذي ليس هو ماضيه وحده ... بل ماضينا نحن الأوروبيين والأمريكيين ... ماضي البشرية كله ... ونحن إذ نطأ أرضه، نشعر كأنما وطئنا الأرض التي عليها وُلِدنا. ... وسرنا في خطى الأولين والآلهة الأقدمين! هناك حيث سار المصريون والحيثيون والفينيقيون ... أجيالًا من قبل «إبراهيم»! ... وإن التاريخ بوسائله الحديثة، كلما توغل هناك باكتشافاته، أيَّد الأساطير وما نفاها ... وأكدها وما بدَّدها. وها هي أعمال الحفر التي يقوم بها العلماء في الشرق الأوسط تعيد إلى الكتب القديمة هيبتها واعتبارها، نافضةً عنها الشيخوخة ... متوِّجة مفارقها بتاج الشباب الدائم.

لن يعرف إلى أين يذهب ذلك الذي لا يعرف من أين جاء!

إن الماضي يصنع المستقبل ...

«إن الإنسان ليس أرقى من الحيوان إلا بعراقة تقاليده وعمق ذكرياته» ... إن الصهيونيين إذن ما أرادوا قط أن يُنشئوا في فلسطين وطنًا تاريخيًّا ... وإنما أرادوا أن ينشئوا وطنًا اقتصاديًّا ... إنهم يريدون أن يسيطروا صناعيًّا وتجاريًّا على تلك الحقول الخضراء الواسعة من حولهم التي يرعاها نفر ساذج في رأيهم ... إنهم جاءوا للحرب لا للسلام. جاءوا يُخضعون لسلطانهم أقوامًا مُسالمين.

الصهيونية ليست أنشودةً حالمةً لجنس مُضطهَد ... كما استطاعت بحذق أن تُفهم أمريكا ... ولكنها مشروع اقتصادي وسياسي.

(أخبار اليوم ٣ / ٧ / ١٩٤٨م)

الساقية تدور

يروي الفيلسوف الصيني «لي هنز» هذه الأسطورة المملوءة بالحكمة:

فوق تلال غابة نائية كان يعيش رجل شيخ مع ابن له وجواد ... ففي ذات صباح هرب الجواد واختفى ... فأقبل الجيران على الشيخ يُعزُّونه في نكبته بفقد جواده ... فقال لهم الشيخ: ومن أدراكم أنها نكبة؟!

فصُعِقوا ... وانصرفوا واجمين ... ولم تمضِ أيام حتى عاد الجواد إلى صاحبه من تلقاء نفسه، لا وحده، بل مصطحبًا معه عديدًا من الخيول البرية ... فعاد الجيران إلى الشيخ فرحين مهنئين بهذا الغُنْم الوفير، وهذا الحظ السعيد ... فنظر إليهم الشيخ بهدوء وقال: ومن أدراكم أنه حظ سعيد؟!

فسكتوا مذهولين ... وانصرفوا متحيرين ... ومرَّت الأيام ... وجعل ابن الشيخ يُروض الخيول البرية ... فامتطى منها جوادًا عنيدًا، فسقط من فوق صهوته إلى الأرض، فكسرت ساقه، فرجع الجيران مرة أخرى إلى الشيخ محزونين، يبثُّونه الألم لما وقع لولده، ويُعزُّونه في هذا الحظ العاثر ...

فقال لهم الشيخ برفق: ومن أدراكم أنه حظ عاثر؟

فانصرفوا صامتين ... ومضى العام، وإذا حرب تقوم ... وجُنِّد الشباب، وأُرسِلوا إلى الميدان، فلاقى أكثرهم الحتف إلا ابن الشيخ. ... فإن العرَج الذي بقدمه أعفاه من الذهاب إلى الحرب، وأنقذه من ملاقاة الموت!

إلى هنا تنتهي قصة الفيلسوف الصيني ... ولو أنه استرسل فيها لما فرغنا من تعاقُب السعد والنحس على الحادث الواحد ... ذلك أن لكل شيء نهاره وليله، يدوران حوله بغير انقطاع ... ولكن الإنسان في نظرته القصيرة وذاكرته الضيقة لا يرى الحادث إلا في حلقاته

المنفصلة وأجزائه المتقطعة ونتائجه المؤقتة، ومؤثراته المفاجئة؛ فعينه لا تستطيع أن تشمله في جُملته؛ لأن جملته ممتدة في الغد، وعين الإنسان لا ترى الغيب …

ولو استطاع إنسان أن يشمل بنظرته الأمس واليوم والغد … وأن يتبع حادثًا واحدًا أو رجلًا بالذات لرأى العجب! … فهذا الغني الذي يملك الملايين، سيرى أمواله قد بدَّدها وريث. وهذا الوريث سيكون له أولاد فقراء … ومن هؤلاء الفقراء يخرج واحد ينشئ ثروة … وهكذا دواليك … يأتي المال من العدم، ويذهب المال في العدم، ويولد من السعد نحس، ومن النحس سعد … ساقية لا تكفُّ عن الدوران، ولا تقف طول الزمان … ليس هناك — في حقيقة الأمر — حظ زاهر ولا عاثر؛ لأن الساقية الدوارة لا تُبقي أحدًا في موضعه، ولا شيئًا في مكانه … إن ما نسميه «الحظ» ليس إلا وقوف نظرنا المحدود، على وضع من الأوضاع في وقت من الأوقات …

وإن فرحنا أو بكاءنا لهذا الحظ ليس سوى قلة صبرنا على انتظار البقية … شأننا في ذلك شأن المُشاهد لقصة تمثيلية … إنه يضحك أو يبكي لكل ما يصيب البطل دون أن ينتظر ختام الرواية … لعل أداة الشعور والإدراك فينا، قد جُعِلت على هذا التركيب المناسب لحياتنا القصيرة؛ فنحن نأخذ كل حادث يمر على أنه البداية والنهاية، لا أنه الحلقة في سلسلة طويلة.

إن الإنسان الذي أُعطِيَ الحكمة، ليس — في حقيقة الأمر — إلا ذلك الذي أُعطِيَ العين التي ترى الأشياء في جُملتها لا في جزء منها، وفي تعاقُبها لا في وقوفها … تلك العين التي تبصر الساقية في دورانها … وهذا ليس بالأمر الهين … إنه للبشر من أصعب الأمور … من أجل هذا كانت الحكمة في الأرض نادرة … لأن الحكمة وحدها هي التي ترى الساقية وهي تدور!

(أخبار اليوم ٩ / ٤ / ١٩٤٩م)

في المرأة

فتياتنا في الحرب

تخيلتُ البارحة أن الحرب أُعلنت، فنهض في الحال كل فرد بواجبه؛ فتطوَّع الشبان في الجيش المصري المُظفَّر، ووُضِعت المواهب في خدمة الوطن العزيز، وحِرْتُ أنا قليلًا في نوع الخدمة التي أستطيع أن أؤديها لبلادي، واحمرَّ وجهي خجلًا أن يكون نصيبي آخر الأمر الترحيل إلى قريتي أو الفرار إلى عزبتي ... كلا هذا لن يكون ... إن مثلي ممن أعطى فكره وحياته لبلده في أيام السلم، لا يمكن أن يضنَّ بها في أيام الحرب ... لا بد من ذهابي إلى خط النار. نعم سأذهب إلى خط النار حاملًا ... حاملًا ماذا؟ أنا الذي لم يحمل قط مُدية يبري بها قلمه الرصاص! ... لكن مهلًا ... هل الحرب كلها بنادق ومدافع ورصاص؟ إني أستطيع أن أدافع عن وطني بقلمي الرصاص، فلأذهب به إلى خطوط النار بصفتي مراسلًا حربيًّا مثلًا أكتب التقارير وأصف المواقع؛ كما كان يفعل «كبلنج» في جيش الهند.

وذهبتُ بقلمي ووصفتُ وكتبتُ وحرَّرتُ واختزنتُ في الذاكرة من المعلومات والمواد ما سوف يملأ مجلدات تدرُّ عليَّ آلاف الجنيهات أولًا، وتضمن لي الخلود ثانيًا، ولكن بينما أنا أراقب موقعة من المواقع وقد دفعني حب الاستطلاع إلى نسيان الحيطة والحذر، فابتعدتُ عن مواطن الأمن، واقتربت من مواضع الخطر، إذا رصاصة قد انطلقت تصفر في الفضاء قصفت قلمي الرصاص أولًا، ثم أرادت أن تقصف رقبتي ثانيًا، ولم أدرِ ما حدث؛ فقد رُحتُ في غيبوبة لم أفق منها إلا في سرير مستشفى القاهرة.

قرع سمعي ضجيج مشاجرة قرب سريري، وصوت طبيب يقول لممرضته: حقك عليَّ يا زوزو هانم!

ولكن الست الممرضة وهي فتاة رشيقة مهندمة أنيقة — لم تنسَ أن تصبغ شفتيها بالأحمر، ولكنها نسيت أن حولها جرحى على شفا الموت الأحمر! — أجابت في خشونة: أيوه إنت لازم تعرف أنا مين! الباشا ... بابا ...

– مفهوم ... مفهوم ... لكن على كل حال اسمحي لي أنبهك للمواعيد ... عملك يبتدئ الساعة سبعة، وحضرتك قمتِ من النوم الساعة عشرة!

– وما له؟! أنا متعودة على كده ... وأنا مش خدامة ... أنا متطوعة!

– متطوعة علشان تؤدي الواجب مش عشان تدَّلعي. أنتم فاهمين المسألة دلع، وواخدين الشغلة دي على أنها موضة مش على أنها واجب، وكانت النتيجة أنكم سبتم العيانين المساكين ينفلقوا لغاية حضرتكم ما تصحوا على كيفكم.

– إيه الكلام الفارغ بتاعك ده يا دكتور؟! أنا واحدة من الطبقة الراقية، ما يصحش تقول لي كلام زي ده، أنا عمر ما حد تأمَّر عليَّ، رايح انت تتأمَّر عليَّ! ... بابا نفسه ما يقدرش يقولي تلت التلاتة كام ... وماما كمان ... ومدحت خطيبي دكتور عظيم يلبِّسني بيده الجزمة، ويقدِّم لي احتراماته خمس مرات في اليوم ... ومع ذلك فين هم العيانين اللي انفلقوا لغاية ما صحينا؟

– آدي واحد منهم كان حقك تستلميه من الساعة سبعة صباحًا؛ علشان تقدمي له الدوا خمس مرات في اليوم!

وأشار الطبيب إلى سريري، فالتفتت الفتاة نحوي وتنهدت وقالت: حكم علينا الزمان!

فانتفضتُ وقلتُ في نفسي: وانا ما حكمش عليَّ الزمان لما يسلِّموني لبنت متدلعة زي دي؟!

انصرف الدكتور ... وبقيت الممرضة زوزو «هانم» تلاحظني كما طلب إليها الطبيب، ولكنها لم تُطِق صبرًا على الوحدة دقيقة، فما كاد الدكتور يختفي حتى ذهبت إلى باب القاعة، ونادت في «العنبر» المجاور: يا شوشو.

فظهرت ممرضة «هانم» أخرى من طرازها، وقالت: إيه يا زوزو؟

– تعالي يا أختي ندردش ألا روحي طلعت!

– حقا يا أختي قُطعوا العيانين وقُطعت أيامهم، وحياتك لو كنت أعرف الحكاية تزهق كده ما كنت تطوعت ولا هببت!

– ولا أنا وحياتك!

– قال إيه نقعد طول النهار والليل نسقي أدوية، ونشاهد أمراض ونماذج مجاريح.

– يا ترى ميمي فين؟

– مسكينة؛ سلموها ضابط كبير جابوه النهارده مكسَّر حتت وقاعدة تلاحظه — بعيد عنك — لما داخت!

– بعيد عني ازاي ما انتش شايفة أنا رخرة في الغلب إياه! الدكتور الثقيل سلمني بسلامته الجريح اللي قدامك ده ... لسه ما نطقش من الصبح ... ومش باين عليه حاينطق في يومه!

وأشارت إلى جسمي الممدد، فلم أطق صبرًا وفتحتُ عيني، ووجدتُ في نفسي القدرة على الكلام فصِحتُ: أنطق أقول إيه؟ تبقى روحي بين يدي زوزو وشوشو وموشو ورايح أفلح؟! ... أنا توفيت وعليَّ رحمة الله!

فذعرت الفتاتان وصاحتا في وقت واحد: يا دهوتي!

ثم تمالكتا وأقبلتا عليَّ، وقالت زوزو المنوطة بي: فُقت خلاص؟

فنظرتُ إليها بعينين واسعتين:

– أنا عارف؟ بتسأليني أنا؟! إنتِ مش حضرتك ممرضة وتعرفي على الأقل إذا كنت أنا فُقت ولَّا لسه مغمى عليَّ؟!

فحدقت زميلتها في وجهي، وقالت لها: كلام ياختي معقول، هو يظهر عليه إنه فاق!

فقلت لها: يظهر كده!

فأسرعت زوزو إلى الدواء، وأقبلت به نحوي قائلةً: طيب حيث كده بقى تفضل خذ الدوا، وبطل الدلع من فضلك!

فنظرتُ إليها مليًّا:

– أنا اللي أبطل الدلع؟!

فهمست زميلتها في أذنها قائلةً: ما للعيان بتاعك ده من دون العيانين قايم يناكف كده على طول؟!

فقالت لها: أنا عارفه إيه ده؟ علشان تصدقي قلة بختي يا شوشو!

– أنا كمان في مسألة العيانين ما عنديش حظ أبدًا يا زوزو!

فنظرتُ إليهما متنهدًا:

– كبدي على قلة بختك يا زوزو، وسوء حظك يا شوشو!

فجعلت كل منهما تحدُّ إليَّ البصر دهشةً وغضبًا، وتحركت زوزو فجأةً، ومدَّت يدها إلى البطاقة المُعلقة برأس سريري، فانتزعتها بشدة، وأخذت تقرأ فيها البيانات الخاصة بي، ومنها اسمي ... وعندئذٍ لفظت صيحة خفيفة، وألقت على وجهي نظرة طويلة، وهزَّت رأسها لحظة وقالت لزميلتها: أنتِ عارفة ده مين؟! دا ...

ثم همست في أذنها بكلام لم أسمعه ...

وإذا صاحبتها تلفظ عين الصيحة، وتتفرَّس في وجهي مليًّا، ثم تقول هي الأخرى هامسةً:

– أيوه، هو بعينه ولسانه الطويل!

– تعالي بقى نجننه وننتقم منه ... أهو وقع في إيدينا.

فسمعتُ العبارة الأخيرة وارتعدتُ صائحًا:

– لأ ... اعملوا معروف ... أنا أفضل أني أقع في أيدي الأعداء!

فأجابت الفتاتان:

– أعداء ... وانت لك أعداء غيرنا؟!

وهنا انقطع التخيُّل وارتفع الخيال، وثُبتُ إلى رُشدي، وقد أدركت خطورة مركزي إذا وقعت الحرب! فأنا وحدي من دون الناس أجمعين واقع في الأسر، واقع على كل حال ... فأمامي عدو من الطراز العنيف، وورائي عدو من الجنس اللطيف! فإذا نجوتُ من قبضة أحدهما لم أنجُ من قبضة الآخر! ... والعياذ بالله.

(آخر ساعة ٢١ مايو ١٩٣٩م)

بيني وبين «خصومي الشرفاء المعقولين»!

ما كادت تنشر في هذا المكان قطعتي السابقة «فتياتنا في الحرب» حتى قامت والحرب «فعلًا» بيني و«بينهن»، وترامت إلى أبراجي المقذوفات الآتية:

سيدي الأستاذ الحكيم

فتحتُ هذا المساء مجلة «آخر ساعة»، وقد كنت طوال الصباح بالمصادفة أفكر في أمرك؛ «لما قرأته لك من رأي عن المرأة المصرية في إحدى المجلات»، فلم يدهشني أن أجدك هنا أيضًا مرة أخرى! على أني لست أكتمك أني صُدِمت هذه المرة صدمة شديدة. صُدِمت للصورة التي رسمَتْها يدك لمرضاتنا من فتيات الطبقة الراقية إذا نشبت الحرب. إنها سخافة! اسمح لي أن أقول إن ما صوَّره قلمك هراء، وإنك قد بالغتَ وأغرقتَ في المبالغة حتى وقعتَ في الابتذال ... إن أحطَّ فتاة في العالم لا يمكن أن تتصرف أثناء الحرب هذا التصرف الذي نسبتَه إلى الفتاة المصرية، لقد صدمتني سخريتك اللاذعة، وجرحتني إهاناتك المؤلمة، من أين جاءتك هذه الفكرة عنا؟ ألا تراك تحكم على المصرية بناءً على القليلات اللاتي شاهدتهن — كما تقول — لا يعرفن شيئًا غير لعب «الكونكان» والقفز في «البلاجات» وقيادة السيارات؟ ... ثق أن أغلب المصريات يعشن مُعتكفات في حياة مغلقة، فلم تتيسَّر لك فرصة معرفتهن وتقدير قيمة شخصياتهن.

ما رأيك في «مبرَّة محمد علي»؟ ألم تُحسِن تنشئتها وإدارتها مصريات؟ إنهن لسن عديمات النفع كما تظن! أنت تُحسِن الكلام عن الأوروبيات، ثق أننا نساويهن في التعليم والتهذيب، بل في كل شيء ما عدا الحرية، وهذا النقص في الحرية أنتم سببه معشر الرجال. إن المرأة الأوروبية محترمة وهي حرة التصرف

... حرة التفكير ... حرة الحياة ... أما نحن فأقل خطوةٍ منا تُنتقَد أشد النقد ... نحن نعيش في أقفاص ... لِمَ هذه الحملات على المرأة المصرية ووصفها بالسخف والسطحية، وفقد العاطفة والقلب؟

نحن في حاجة إلى زيادة الحرية للسجينات الفاضلات، وللحد من الحرية للطائشات المستهترات ... إنني أعترف أننا في حاجة إلى حسن القيادة والتوجيه، وأن أمامنا أشياء كثيرة يجب أن نتعلمها ... ما رأيك لو غيَّرتَ وقدتَ أنت خطوات المرأة وساعدتَها وشجعتَها، بدل إساءتها، عندئذٍ نصبح مَدينات لك ... كما نحن مَدينات لقاسم أمين.

وبعدُ، أنفترق صديقين؟

مصرية

وصلني هذا الخطاب بلغة إنجليزية سليمة، وقد ذكرت صاحبة الخطاب في سطرين السبب في ذلك قائلةً: «ولا تظن أن كتابتي لك بالإنجليزية معناها أني أجهل لغة بلادي. إنما أردتُ أن أختار أقوى الأسلحة في محاربتك، والإنجليزية أطوع في يدي الآن من العربية التي أرجو أن أتقنها يومًا؛ لأكتب بها إليك.»

ثم وصلني في اليوم التالي الخطاب الآتي بلغة فرنسية جيدة دون أن تذكر صاحبته السبب ... ولكنه مفهوم طبعًا؛ فهي أيضًا قد اختارت نوع السلاح المناسب! ... وما دامت الأولى قد آثرت لغة شامبرلين — رئيس وزراء بريطانيا — فلا يدهشني أن تؤْثِر الأخرى لغة دلادبيه — رئيس وزراء فرنسا — وهو تحالف طبيعي أخشى أن يؤدي في «حربنا» الصغيرة هذه إلى نفس النتائج التي سيؤدي إليها في الحرب الأخرى الكبيرة ... وإليكم ترجمة الخطاب مستهله برقة الروح الفرنسي المعهودة:

عزيزي الأستاذ الحكيم

أنت قاسٍ على المرأة المصرية، لماذا تُلقي على عاتقنا خطأ أولئك اللاتي استثرن سخطك؛ إذ لا شك أنك قابلت أولئك المصريات الطائشات ممن سحرنك بجمالهن في بادئ الأمر، ثم وجدتَ بعد ذلك أنهن لا يتعالين إلى مثلك الأعلى. كم هي جميلة وممتازة امرأة أحلامك ... ممتازة وكاملة إلى درجة استحالة وجودها بالفعل! تقول: «أنا عدو المرأة»، لا ينكر أحد إخلاصك، ولكنني أنا — التي تحتقرها وتغمرها بظلمك المستمر ... أنا مصرية العصر الحديث — أقول إنه لم يعرف

أحد غيرك كيف يحب المرأة ... لقد جعلتَها فوق البشر إلى درجة أن أقل خطأ تكتشفه في حقيقتها يصدمك! الرجال الآخرون يتسامحون في ضعفها، إنهم لا يطلبون غير جمالها ولا يتأملون من سخفها وطيشها ... أولئك لا يعرفون ما تستطيع أن تمنحه المرأة. إن تسامحهم وتغاضيهم لَأشد إيلامًا وإهانةً من أقسى الانتقاد، ولذلك فإنني لا أثور لنقدك وسخريتك ... إني أعطيك بعض الحق، ولكنني أتألم من هذا الحكم، ولستُ الوحيدة التي تتألم؛ إذ ترى كيف أن المصرية الحقيقة مجهولة. إنه لا يُسمح لها أن تسفر عن أفكارها وعواطفها إلا للأقارب أو أصدقاء الأسرة القدماء ... أنا شخصيًّا لم أعرف في حياتي البالغة الآن ٢٣ عامًا إلا خمسة رجال؛ ثلاثة أقارب؛ منهم قريب خطبني ثم هجرني من أجل راقصة! ثم عجوزان صديقان لوالدي ... فإذا صحَّ لي أن أحكم على الرجال بناءً على هذه العينة، لكوَّنت عنهم فكرة أسوأ من فكرتك أنت عن النساء ... نحن في سجن، ومهما مُنِحنا من أنواع التعليم والثقافة فإننا جاهلات أهم شيء في الحياة؛ وهي الحياة نفسها، وكيف نعرف ونحن لا نعرف كيف نخاطب رجلًا في مجتمع من المجتمعات الفاضلة؟ لقد كان من نتيجة فقْد حريتنا أنني حضرتُ مجتمعًا صغيرًا محدودًا، فقُدِّمتُ فيه إلى إخوة وأبناء أعمام بعض صديقاتي، فلم يلبثوا أن وجدوني شبه بلهاء ... نعم لقد أفزعني حضور الرجال، فكانوا إذا وجَّهوا إليَّ كلامًا احمرَّ وجهي خجلًا، واضطربت نبضات قلبي، وتمتمتُ وتهتهتُ بإجابات خاوية تُدهشني أنا شخصيًّا وتزيد في خجلي. كيف أستطيع وأنا على هذه الحال أن أجد أحدًا يهتمُّ بأمري أو يأبه لشخصي؟ كم من فتاة غيري يحدث لها ذلك؟ فقد يجدن أنفسهن أحيانًا في مجتمعات بها أوروبيات يتألقن كالنجوم بحديثهن الشائق وشخصياتهن البارزة، ويتركننا نحن المصريات الخاملات الخجلات في ظلام الإهمال المهين.

إن ارتياد المجتمعات، عوَّد الأوروبية معرفة الحياة، وعلَّمها فن الحديث الذي يُظهِر من المرأة كل جمالها الروحي، إن الرجل المصري أناني، ضيِّق الذهن ... وهو — بحبسه المرأة المصرية في البيت كأنها خادمة — قد حرم هذه المسكينة أكبر فرصة لتكوين شخصيتها باتصالها بالرجال الأكثر منها ثقافةً وتجربةً وخبرةً. وإذا تجرأت مصريةٌ وذهبت بمفردها إلى أحد هذه المجتمعات، ففي اليوم التالي تراها مضغة في أفواه العجائز وأصحاب الجرائد والمجلات.

نحن في بلد يتذوق فيه الناس الأقاويل والإشاعات تذوُّقه «للملوخية». يلذُّ لي أن أبثَّك هذه الأشياء المؤلمة رغم أنك عدونا! إنني لا أشعر بذلك؛ فأنا لا أكاد أتصورك في شكل بشري، أنت بالنسبة لي روح؛ تفهم وتدرك كل ما أقول وما أحس، فأرجو ألا تغضب لمحادثتي إياك طويلًا، فلئن كان لك من الصبر ما يحملك على قراءة خطابي هذا إلى النهاية، فإني أكون عاجزةً عن شُكرك؛ لما أعطيتنيه من فرصة الترفيه عن نفسي الحبيسة، بالإفضاء بكل هذا الكلام.

وأخيرًا أتسخر مني أيضًا بعد ذلك؟ افعل ما شئتَ، لكن افهم جيدًا أن المصرية لم ترفع حجابها بعدُ. إنه ما زال على وجهها كثيفًا ثقيلًا خانقًا، ولا بد أن تمضي سنوات عديدة قبل أن تُحرَّر المصرية نهائيًّا من هذه الأغلال التي تُحطم شخصيتها.

لا تظن بعد هذه الاعترافات أن في مقدوري أن أكشف لك عن اسمي الحقيقي ... أعطني أنت الاسم الذي تراه: تافهة، مغفلة، ثقيلة ... إلخ إلخ.

اخترتُ هذين الخطابين من بين عشرات كلها لا يخرج عن هذه اللهجة المؤدبة اللطيفة، ولا عن هذه الأفكار المعقولة الشريفة، وهي — كما ترى — تتجه إلى قضية تكاد تكون عادلة، أكتفي اليوم بعرضها، عسى أن يتألف من بين المصريات «وفد رسمي» ينتزع للمرأة المصرية «الاستقلال التام أو الموت الزوّام» من بين براثن الرجال غير الكرام!

(آخر ساعة ٩ يوليو ١٩٣٩م)

المرأة والأسد

قرأتُ في إحدى الصحف التي تُنشر في مدينة برمنجهام بإنجلترا، هذا الإعلان العجيب:

«مطلوب فتاة لتقليم مخلب بعض السباع التي ستُعرض قريبًا في ملعب سيرك ببرمنجهام. أجرة حسنة. شروط ملائمة.

ملحوظة: السباع تُفضِّل الفتيات السمراوات أو الحمراوات!»

ولستُ أدري أهذا ذوق السباع حقًّا أم هو ذوق صاحب الملعب؟! مهما يكن من أمر فقد علمنا نحن الرجال أن لنا منافسًا خطرًا هو «ملك الغابة»!

بقي أن نعرف رأي الفتاة السمراء أو الحمراء التي ستتقدم إلى منافسينا الخطرين، وتتناول أكُفَّهم وتُداعب مخالبهم؟ ما شعورها؟ وما قولها! همَّني أن أعرف ذلك بأي وسيلة، وفكرتُ قليلًا، فرأيت أقرب السبل أن ألقي هذا السؤال على «مقلمة الأظافر» في حانوت حلاقي، فذهبتُ إليها وطلبتُها، فأقبلتْ والدهشة في عينيها، وكانت تتساءل: «ماذا جرى له اليوم؟!» ذلك أني أعرفها، وأعرف المحل من أعوام، وتراني أجيء لأحلق ذقني أو أقص شعري، وأخرج على عجل وأنا أرمقها بنظرة شزراء، كلما رأيتُ بين يديها رجلًا خشنًا يلمع أظافره! وقالت لي مرة إنها تخاف من نظرتي، وتسألني ماذا جَنت؟ فقلت لها: كان يجب أن تبصقي في وجه ذلك الرجل الذي يمدُّ لمثلك أصابعه الرقيقة وأنامله الدقيقة!

فلما أقبلتْ واقتربتْ مني وتناولت يدي، ورأيتُ على وجهها ابتسامة فهمتُ مغزاها ... وحرَّكت شفتيها حركة أدركتُ معناها فأسرعتُ قائلًا لها: لا ... لا تبصقي في وجهي! المسألة لها أصل.

– مانيكور؟

– لا ... لا تفعلي شيئًا ... إني مُصرٌّ على رأيي، ولا أبغض شيئًا مثل رؤية أظافري تلمع وتبرق كأصابع النساء! ولكن قُصيها فقط قصًّا بسيطًا ... وسأدفع أجرة «المانيكور» كاملًا ... المهم هو أني أريد أن أحادثكِ.

– حُب وغرام؟

– صحافة!

– ماذا تقول؟

فلم أجبها، ولكني نظرت إلى لونها ولون شعرها، وصحتُ كالمخاطب لنفسي: «يا للعجب»! أراكِ منذ زمن ولا أفطن إلى لون شعرك ... أنتِ فتاة حمراء! أنتِ المطلب والبُغية.

– مغازلة؟

– لا ... إني أتكلم بلسان غيري، أنت تمثلين بالضبط ذوق من هو أعظم مني وأضخم وأخطر وأكثر وحشيةً!

– مَن هذا الرجل؟

– إنه ليس رجلًا. إنه سبع!

– ماذا تقول؟

فأخرجتُ من جيبي الجريدة الإنجليزية، وأريتُها الإعلان! فما كادت تقرؤه حتى ضحكت، ونظرت إلى وجهها في المرآة وقالت: تعتقد أني حائزة لكافة الشروط؟

– إن السباع — كما قرأت — لا تطلب أكثر من ذلك؟

– إنها ليست مثلكم معشر الرجال، إنها في غاية التواضُع!

– والآن ... أريد منكِ إجابة صريحة: هل تقبلين حقًّا أن تُقلمي مخالب أسد؟

– ثق أنه شرف عظيم.

– ألا تخافين؟

– ولماذا أخاف؟

– أنتِ المرأة الضعيفة؟ أنتِ التي تصرخين فزعًا لرؤية فأر صغير!

– صحيح ... منظر فأر يُرعبنا، ولا يُفزعنا أن نمسح على وجه أسد، توافه الأمور تبكينا، ونتجلد أمام أفظع الآلام، هكذا نحن النساء ... وهذا هو الفرق بيننا وبينكم أنتم الرجال.

– إنه التناقض ... خُلِق التناقض من ضلع المرأة!

– سمِّه ما شئتَ ... ولكن تلك هي الحقيقة، إني لن أحجم عن إجراء «مانيكور» كامل لسبع من السباع إذا طلبوا إليَّ ذلك.

– يا للعجب! أهي قوة فيمن افترضنا فيها الضعف؛ بغرورنا؟ أهي شجاعة فيمن ظننَّا فيها الجبن؟ أم هو الضعف والجبن يُخرِجان عنصرًا مضادًّا لهما؛ كما يخرج «البنسلين» من بعض الجراثيم؟!

– ما شأن «البنسلين» فيما نحن فيه؟ لماذا تُعقدون الأشياء، وتلفُّون كل شيء في قراطيس من الكلام الذي تُحسنونه؟ … نحن بكل بساطة خُلقنا للترويض.

– ترويض الوحوش؟

– إذا شئت … وأنتم الرجال فصيلة من تلك الفصائل التي وُجِدنا لترويضها.

– شكرًا لكِ.

– عفوًا.

– إذن لا يوجد عندكن فرق بين مخالب أسد وأظافر رجُل؟

– أثناء عملية «المانيكور» لا يوجد فرق.

– شيء غريب! كلها — إذن — حيوانات في نظرك … تمد إليك أيديها أو مخالبها صاغرةً … وإذا زمجرَتْ أو تبرمتْ، كفى أن ترمقيها بنظرة أو تزجريها بلفظة أو تسحريها ببسمة، لتعود إلى الطاعة مؤدَّبة وديعة … سلاحك رقيق نفَّاذ فعَّال؛ لأنه لم يُصنع من القوة ككل الأسلحة … بل صُنِع من نقيضه وهو الضعف؛ إنك تتسلطين على الرجل بدمعة، وعلى السبع بصيحة، وعلى الطفل بنظرة.

– وهذا هو معنى «الترويض» … إنه في جوهره روح «الأمومة» … إن «الأم» هي الحقيقة الكبرى في تركيب «المرأة»، وبهذه العاطفة وحدها تتسلط على كل الكائنات.

سمعتُ ذلك دهشًا من فم تلك الفتاة العاملة؛ كيف استطاعت أن تتحدث هذا الحديث، وتأتي بهذا التعليل بغير حاجة إلى علم ولا تفكير؟ ذلك أيضًا سر من أسرار القوة عند المرأة.

– بقي عندي سؤال: بماذا تُعلِّلين تفضيل السباع للسمراء والحمراء كما جاء في الإعلان؟

فحدجتني بنظرة ماكرة، وقالت باسمةً: هذا سؤال يُلقى على السباع … لقد سألتَني فيما يختصُّ بي فأجبتُك.

معقول. لأول مرة أسمع فيها من امرأة إجابة معقولة! ولم أرَ بُدًّا من الانصراف … فانصرفتُ وأنا أردد في نفسي السؤال ولا أتلقى الجواب؟ أه … كيف السبيل؟

وأين هو الصحفي الذي يُجري حديثًا مع السباع؟!

(أخبار اليوم ١١ / ٥ / ١٩٤٦م)

المسوخات

سمعتُ سيدة مصرية تأمر طفلها بتحية رجل من الأسرة قائلةً: سلِّم على «أونكل»!

ثم استرسلتْ في الحديث قائلةً: «تانت» روحية مسافرة يوم السبت!

فعجبت لذلك ... وقلت في نفسي «أونكل» كلمة إنجليزية معناها «عمِّي»، و«تانت» كلمة فرنسية معناها «عمتي»، والعم والعمة كلمتان موجودتان في لغتنا العربية والحمد لله. فما هي ضرورة الاستعارة والاقتراض؟ ... وما هو الداعي إلى الشحاذة والسؤال؟!

حتى يوم يغنينا الله عن لغة أجنبية نأبى إلا أن نمد لها يد الذل؟! لماذا نتمسح بكل ما هو أجنبي دون أن نشعر بخجل أو إذلال؟

تحدثتُ في ذلك بعدئذٍ إلى صديق فقال: ليتَ الأمر اقتصر على ما ذكرتَ، هنالك نوع من السيدات المصريات والفتيات، نِصف حديثهن فيما بينهن بالفرنسية أو الإنجليزية بلا ضرورة ولا مقتضٍ، سوى ما قام في ذهنهن من وهمٍ بأن هذا دليل المرأة الراقية!

يا للعجب! أما زالت في بلادنا هذه العقلية؟ ... دليل المرأة الراقية أن تلوك في فمها بضعة ألفاظ أجنبية بلا داعٍ؟! ألم ينبِّه أحدٌ بعدُ سيداتنا وفتياتنا إلى أن هذا بالذات دليل المرأة التافهة؛ فهي التي في حاجة إلى مساحيق الكلمات الأفرنجية السطحية تلطِّخ بها حديثًا لتُخفي تفاهة شخصيتها؟!

أيتها المصرية ... اعلمي أن الزمن قد تغيَّر ... ذلك الزمن الذي كنا نشعر فيه أننا ديدان، وأن الأجانب هم الناس، يوم كنا ننظر إلى كل ما يصدر عنا كأنه الحطة والابتذال ... حتى مزايانا التاريخية التقليدية كنا نستهين بها، وحتى مباذله ومفاسده التي يخجل منها كنا نحن نحترمها ونُكبِر من شأنها. كان يكفي أن يهبط بلادنا أفَّاق ذو لكنة أفرنجية، لتُفتح له أبواب الرزق والتقدير والتبجيل! ما من أمة في الدهر فعلت فعلنا: وضعت باختيارها على ظهورها البرادع؛ ليمتطيها كل من يحمل جواز سفر أجنبيًّا!

الآن ونحن نريد أن نطرح من فوق ظهورنا البرادع، وأن نُطهِّر أرضنا من الاحتلال الأجنبي، وأن نُظهِر للعالم أن لنا شخصية وقومية، يجب على المرأة المصرية أن تفهم أن عليها في ذلك واجبًا لا بد أن تؤديه: يجب أن تكون لها هي شخصية وقومية حتى يكون لأطفالها — وهم مصر الغد — شخصيتهم وقوميتهم، احترمي أيتها المرأة بلادك وأنشئي أولادك على احترام لغة بلادهم.

أسمع مع ذلك همسًا مِن قائل يقول في أذني: ألقِ بهذه النصيحة إلى أولئك الذين يُلقون بفتياتهم في أحضان بعض المدارس الأجنبية التي تستلُّ قوميتهن، وتُضيع معالم شخصيتهن، وتجعلهن مسخًا من نساء؛ لا هُن مصريات ولا هُن أوروبيات.

ومن بين هؤلاء الآباء — للأسف — وزراء للمعارف، يشيدون ببرامج المعاهد المصرية، ويرسلون بعد ذلك أبناءهم وبناتهم إلى بعض هذه المعاهد الأجنبية، شأنهم شأن صاحب المطعم الذي يعلن ويدعو إلى مطعمه، بينما هو يتناول وجباته في مطعم آخر!

آه لضعف إيماننا بأنفسنا!

هذا الداء يجب أن يُستأصل أولًا من الرأس.

لي كلمة أحب أن يسمعها وزير المعارف، وهو — على ما أعهد فيه — من أصحاب الاتجاهات القومية والنوايا الطيبة والنزعات الإصلاحية: إن الجلاء العسكري يجب أن يصاحبه «الجلاء المعنوي» لكل احتلال روحي يريد أن يجثم على أفكارنا وصدورنا؛ ليمنعنا من تكوين ذاتيتنا.

ولنقصر هذه الفكرة الآن على «تربية الفتاة المصرية»؛ وهي الأم أي «ترسانة» الأمة التي تمدُّها بخير عتادها وهم أبناؤها.

ما هي السياسة المرسومة لتكوين المرأة المصرية، من السهل علينا إذا ذُكِرَت المرأة الإنجليزية، أو الألمانية أو الفرنسية أو الأمريكية أن ندرك في الحال صفاتها ومميزاتها ومقومات شخصيتها المفروزة المستقلة عن غيرها، فمتى نقول «المرأة المصرية» ونفهم من ذلك في الحال كيانها المستقل وذاتيتها المنفصلة؟ ما هو «النموذج» أو «التصميم» الذي وضعته وزارة المعارف لامرأة مصرية نموذجية؟

لنا أن نرسل البعثات، وأن نستقدم الخبراء، وأن نتعلم من الأجانب، وأن نطَّلع على أحدث النظُم، وأن نسترشد بأكمل الوسائل ... ولكن المطلوب بعد ذلك هو إفراغ كل هذا في قالب جديد هو من تصميمنا، قالب نحرص في صنعه على كل فضائل جنسنا، ومزايا طبائعنا، وخلاصة تجاربنا، مع خير ضرورات العصر الحاضر، ومستلزمات التطور العلمي والصحي والاجتماعي.

هذا القالب إذا وُجِد، وهذا النموذج إذا وُضِع، فهما كفيلان أن يملآنا اطمئنانًا ... لا على مستقبل المرأة المصرية وحدها ... بل على مستقبل نهضتنا كلها؛ فهو الذي سيوحد العقلية في الأمة بأسرها ... ومتى تم ذلك ظهرت لنا في الحال قومية موحدة وشخصية واحدة. «وحِّدْ عقلية الأم تُوحِّد عقلية الأمة».

(آخر ساعة ٢٦ يونيو ١٩٤٦م)

المرأة بعد ٢٠٠٠ سنة

أردتُ يومًا أن أتخذ مهنة الفلكي لحظة، وأن أسدِّد المنظار إلى النجوم وأطالع الغيب؛ لأرى ما سوف يحدث للمرأة من تطوُّر في مستقبل الأيام ... وأستطيع أن أؤكد للناس أني أبصرتُ الذي سوف يقع على وجه الدقة والتحقيق؛ وهو الآتي:

في سنة ٢٠٠٠ ميلادية: تظفر المرأة بحُلمها، وتنال المساواة بالرجل في كافة الحقوق المدنية والسياسية والاجتماعية، فلم يعد هناك ما يحول بينها وبين المناصب التي استأثر بها الرجل ... فهي تتولى الآن رئاسة الوزارة، وتؤلف وزارات بعض أعضائها من الرجال والبعض من النساء، وهي تشترك في الأحزاب التي ينضم إليها الرجال، وترأس بعضها، ولم يعُدْ لها أحزاب نسائية خاصة بها.

في سنة ٢١٠٠ ميلادية: يصبح للمرأة الحق في أن تُعيَّن قاضية في المحاكم العليا، وأن ترأس محاكم النقض، وأن تكون في منصب النائب العام.

في سنة ٢٢٠٠ ميلادية: تحتل المرأة المراكز العليا في الجيش، فهي تستطيع أن تكون قائدة ورئيسة لأركان الحرب. وهي تشترك بالفعل إلى جانب الرجل في كل أعمال الحروب، فهي تقود الدبابة والطيارة وتلقي القنابل الذرية والصاروخية، وتسدد أشعة الموت، وتقود الأساطيل، وتدير البوارج، وتُعيَّن في منصب الأميرال والمارشال في البر والبحر والجو.

في سنة ٢٤٠٠ ميلادية: مُحِيَت الفروق تمامًا بين الرجال والنساء في الوظائف العامة والخاصة ... وفي المظاهر الخارجية والداخلية، فلم تعد هناك ثياب للمرأة وثياب للرجل. واختفى الفرق بين شَعر رأس المرأة وشَعر رأس الرجل ... وقد أدَّى تعميم الخدمة

العسكرية والألعاب الرياضية للجنسين إلى ظهور العضلات في جسم المرأة وضمور الثديين، وقسوة النظرة في العينين.

في سنة ٢٥٠٠ ميلادية: نقص النسل الآدمي نقصًا مروعًا، لم يعُدْ هناك ما يُغري الرجل بالاقتراب من المرأة ... وزالت من الأذهان كلمة «السحر» أو «الفتنة» التي قيل في الأساطير الشعرية القديمة إن المرأة اختصَّت بها منذ آلاف السنين.

في سنة ٢٦٠٠ ميلادية: وقع حادث عجيب أقام الدنيا وأقعدها، فقد ظهرت بين النساء امرأة شاذة تركت شعر رأسها يسترسل على كتفيها، فأحاط بها الرجال والْتهموها بنظراتهم، وتبعوها في كل مكان دهشين مُعجبين، إلى أن أنقذها من الزحام رجال ونساء البوليس.

في سنة ٢٧٠٠ ميلادية: انتشرت بين النساء بدعة ترك الشعر وإرساله على الكتفين ... كما ظهرت بينهن «موضة» صُنع ثياب خاصة بهن.

في سنة ٢٧٥٠ ميلادية: وقعت لأول مرة منذ قرون حوادث غرامية بين الرجال والنساء على النحو الذي ورد في القصص والشعر القديم، ورفض كثير من النساء مزاولة الأعمال العامة؛ رغبةً في الانقطاع لتربية ثمرة غرامهن.

في سنة ٢٨٠٠ ميلادية: طغى جنون غريب على مشاعر النساء هي عاطفة «الأمومة»، وكان من أثر ذلك ترك النساء أكثر الوظائف في الجيش والقضاء والبوليس، مُفضِّلاتٍ حياة البيت.

في سنة ٢٩٠٠ ميلادية: تطور جريء في المرأة قد وقع، وهو يُعَدُّ أجرأ حدث في تاريخها ... لقد لبست المرأة «برقعًا» أخفت به شطرًا من وجهها ... فلم يظهر منه غير عينيها البراقتين، وقد فُتن بها عدة رجال انتحر بعضهم على عتبة بيتها غرامًا.

في سنة ٣٠٠٠ ميلادية: عمَّت بين النساء «موضة» لبس «البراقع».

في سنة ٣٥٠٠ ميلادية: استقرت المرأة في البيت ... ومُحِيت من الأذهان كل تلك الأفكار التاريخية العتيقة التي شاعت قديمًا عن خروج المرأة إلى المجتمع مشارِكةً الرجل في أعماله.

في سنة ٣٩٤٦ ميلادية: عم الدنيا نظام الحجاب التام للمرأة، فلم يعد هناك اختلاط بين الرجال والنساء، ولم تعد تظهر المرأة في مجتمعات الرجال ... وتم الفصل بين مجالس

النساء ومجالس الرجال ... ولم يعد للخاطب حق الانفراد بخطيبته قبل الزواج ... وقد لوحظ في ذلك الجيل أن العزوبة كادت تختفي، وأن الزواج قد اشتدَّ الإقبال عليه إلى حد غير معروف منذ مئات الأعوام ... وأن الفساد الخُلُقي قد خفَّت وطأته.

وهنا طرحتُ المنظار من يدي ... ولم أُرِد أن أمضي في مطالعة الغيب ومشاهدة سنة ٣٩٤٦م؛ خشية أن أتعرَّض لسخط أحزابنا النسائية المنادية بالتقدُّم والتحرُّر والتجديد، وفضلت أن أعود في الحال إلى سنة ١٩٤٦م حتى لا أُتهم بالرجعية والتأخُّر والجمود!

(آخر ساعة ١٠ / ٧ / ١٩٤٦م)

سلاح المرأة الذي لا تستعمله

سألتني سيدةٌ هذا السؤال المُحرِج:

– مَن هو المسئول أولًا عن الهناء الزوجي؛ الرجل أو المرأة؟

ووجْه الحرج في هذا الأمر أني إذا أردتُ الإجابة بالصدق والصراحة، فإني سأُتَّهم حتمًا بمحاباة الرجل.

قد يكون من الصواب والكياسة وحُسن السياسة أن نقول إن الأسرة «شركة مساهمة» يقدم فيها كل طرف نصيبًا مُعينًا من الهناء.

ولكن السؤال قد وُضِع — من غير شك — للحالات المستعصية، ومن بينها تلك الحالة التي يغفل فيها أحد الطرفين أو يتهاون عن تقديم القسط، هل تُفلس الشركة في هذه الحالة؟ أو إن هنالك رصيدًا مُدَّخرًا أو «سلفيات» أو «تسويات» يجب أن يتحمَّل أعباءها الطرف الآخر عن طيب خاطر؛ حتى ينقذ الشركة، ويُسيِّر أمورها، ويُعيد إليها الثقة والثبات، ويرد عليها مركزها الموطد الأركان.

قالت السيدة على الفور: ومَن الطرف الذي يتحمل أعباء «السلفيات» و«التسويات»؟

– مركز الشركة ولا شك ... أعني المدير المقيم ... المركز طبعًا هو «البيت» ... وإذا قيل «بيت» اتَّجه الذهن في الحال إلى «المرأة»؛ فهي المديرة المقيمة التي تدير أموره وتدبِّر شئونه.

– حقًّا المرأة هي مركز البيت ... ولكن ...

– أكثر من ذلك ... المرأة في البيت مثل الروح في الجسم ... مَن المسئول عن شقاء الجسم وعن هناء الجسم؟ ... أليست هي الروح التي تحلُّ فيه؟

فأطرقت السيدة لحظةً تُفكِّر، ثم رفعت رأسها قائلةً: والرجل! ما وظيفته إذن في هذا الجسم؟

فقلتُ بلا تردُّد: الرجل في هذا الجسم هو الرأس ... الرأس المُفكِّر ... الذي يعرف كيف يحتال على الرزق، وكيف يأتي بالنقود، ولكنه لا يعرف كيف يوحي بهناء أو شقاء ... تلك مهمة الروح ... كل شعور أو إحساس ينعم به الجسم أو يشقى هو من إيحاء الروح ... كذلك كل نعيم أو جحيم يحل في البيت هو من وحي المرأة.

– ألا تعترف أن مِن الرجال مَن يأتون إلى البيت بالجحيم؟

– أعترف ... ومثلهم أيضًا مثل الرأس الذي يُتعِب صاحبه ... ويكدِّر غيره بالأفكار المظلمة والخواطر القاتمة ... ولكن الروح بضيائها وإشراقها تستطيع أن تُبدِّد سُحُب الأفكار السود، كذلك المرأة وابتسامتها وتسامُحها ونُبل قلبها تستطيع أن تطرد من بيتها أشباح الجحيم.

فقالت السيدة بارتياب: رأس الرجل ليس هيِّنًا إلى هذا الحد ... إن من الرءوس ما لا يستطيع أن يحطمها الصخر!

فقلتُ باقتناع: هذا صحيح ... من الرءوس ما لا يحطمها الصخر ... ولكن ... ثقي أن كل الرءوس يحطمها القلب ... ما من رأس وقف أمام قلب إلا كان القلب هو المنتصر.

فأطرقت السيدة وهمست: ربما كان هذا حقًّا ... ولكن ...

فبادرتُ مُقاطعًا: لا تقولي «ولكن» ... المصيبة كلها: أن المرأة التي تعرف قوة القلب نادرة جدًّا ... أكثر النساء يصارِعنَ الرجال بسلاح الرجال، وتجعل رأسها يواجه رأسه ... وإذا وقف رأس أمام رأس في بيت أو أسرة، فالويل — كل الويل — لهذا البيت وهذه الأسرة ... إنه الشقاء والشقاق والعراك والنزاع ... رأس ضد رأس كصخرة ضد صخرة ... ولكن اجعلي قلبك هو الذي يتلقَّى رأس زوجك ... فالرأس إذا التقى بالقلب كالصخرة إذا ألقيت في النبع.

(آخر ساعة ١٧ يونيو ١٩٤٦م)

أسعد زوجين

جلس يُصغي بانتباه إلى جهاز الراديو، وقد تصاعد منه صوت ناعم يذيع: «يوضع اللحم في البرام ... ثم يُغطى بالبطاطس ... وتُفرى بصلة فريًا ناعمًا جدًّا ... وتُحمَّر في السمن حتى يصفرَّ لونها، فيضاف الدقيق ويُقلَّب حتى يصبح ذا لون بني فاتح ... ثم تُزاح الصلصة من على النار، وتضاف مع البقدونس والملح والفلفل والبهار ...

إلى آخر ما جاء في برنامج التدبير المنزلي ذلك اليوم ... وكان ذلك المستمع الكريم يسمع بقلب يخفق هيامًا وفؤاد يطير شوقًا ولعاب يسيل حنانًا. وبرح به الغرام ... والأذن تعشق قبل العين أحيانًا ... فلم يُطِق صبرًا، وقام إلى أهله يعلن إليهم:

– لا بد لي من الزواج بهذه المرأة.

فسألوه: هل تعرفها؟

– لا أعرف إلا إذاعتها اللذيذة في الراديو ... إنها تهز قلبي!

وكان صاحبنا من أولئك الذين يخلطون بين القلب والمعدة، فإذا سأله الطبيب يومًا: أين معدتك؟ أشار إلى قلبه ... وإذا سأله: أين قلبك؟ أشار إلى معدته! ... وكان لا بد للمرأة التي تريد اكتساب قلبه من أن تستولي على المعدة أولًا ... فإذا ملكَتْها ملكَتْ كل شيء.

وتمَّت مراسيم القِران ... وجاءت ليلة الزفاف، وأحيت الحفلة إحدى المطربات، جعلت تغني طول الليل: «إحنا الاتنين والعين في العين ... أهنا قلبين واسعد عريسين ...»

والعريس يتململ في مقعده؛ ضجرًا من هذا الغناء، ويودُّ الكلام في ... موضوع أعز عليه وألذ من هذا الهراء.

وضاق صدره آخر الأمر ولم يحتمل ... فانحنى على عروسه وقال لها باهتمام:

حدِّثيني بعد أن وضعتِ اللحم في البرام ... لقد قلتِ إنه يجب أن تفرى البصلة فريًا ناعمًا جدًّا وتُحمَّر في السمن ... ما قولك لو أضفنا مع البصل شيئًا من الثوم والكزبرة والكمون؟

فنظرت إليه العروس طويلًا ولم تُجِب.

ومرَّت الأيام الأولى من أيام الزوجية ... والعريس يتقلَّب على الشوق ويتقلَّى ... منتظرًا اليوم الذي تدخل فيه زوجته المطبخ، وتلبس فوطتها وتُشمِّر عن ساعديها، وتطبخ له تلك الأصناف الشهية التي طالما شنفت أسماعه بوصفها اللذيذ في الراديو.

ودخلت الزوجة المطبخ أخيرًا ... وزوجها يباركها، ويسأل الله أن يحميها ... وعاد من عمله في الظهر وهو يتلمظ ويقول: «صلوات الله على تلك التي ستُسعدني بالأكلة المثالية والطبخة النموذجية».

وانتظر ساعة ثم ساعة ... ثم كاد العصر يؤذن، فخرجت الزوجة النشيطة من المطبخ والعرق والهباب يسيلان معًا من وجهها وهي «مطبوخة» من رأسها إلى قدمها ... وقالت له: لا مؤاخذة! أنا استسهلتُ؛ خوفًا من التأخير، وعملت لك طبق بيض مقلي!

فأخفى الزوج حسرته، وكتم غضبه، ومدَّ يده صامتًا إلى طبق البيض المقلي كما قالت ... فوجد سمنه قد تبخر، وبياضه قد احترق، وصفاره قد تحجَّر.

ودقَّت الساعة الرابعة ... فبادرت الزوجة إلى ثياب الخروج، فارتدتها وانطلقت مسرعة، كأنها على موعد هام.

وما وافت الخامسة والربع حتى سمع الزوج المسكين صوت امرأته الحنون يتصاعد من الراديو، ويذيع على المستمعين المُصدِّقين: «يوضع اللحم في البرام ... ثم يُغطى بالبطاطس ... وتفرى بصلة فريًا ناعمًا جدًّا وتُحمَّر في السمن ... إلخ إلخ.

فأطرق الزوج مليًّا ... ولم يعُدْ يدري ماذا يفعل:

هل يضحك؟ هل يبكي؟

(آخر ساعة ٢٤ / ٧ / ١٩٤٦م)

القبح الجميل

هل توجد «معاهد للتجميل» من نوع جديد في مستقبل الأيام؟ إذا تغيَّرت فكرتنا عن «الجمال»، فإن هذه المعاهد ستصبح ضرورة من ضرورات العصر ... ما من أحد يخطر له أن سلطان الجمال يزول يومًا عن هذا الوجود. فإن عرشه أثبت العروش ... لأن في يده ذلك الصولجان الخفي الذي يمس القلوب فتخضع وتطيع دون أن تناقش في مصدر سلطة تلك القوة، أو تجادل في حق ذلك الصولجان أو شرعية ذلك السلطان.

ولكن الذي قد يُغيِّره الزمن، وتتجه إليه بحوث الخبراء، وتتناوله أيدي سَحَرة التجميل من العلماء والفنانين والأخصاء هو نوع من «الجمال» يمكن استخراجه من «القبح»، كما يُستخرج الماس من الفحم.

أهذا ممكن الحدوث حقًّا؟

ليس من السهل إقناع المرتاب بالدليل المنطقي، ولكن ما من أحد منا لم يصادف في حياته تلك المعجزة دون أن يتنبه لها.

ابحث في ذاكرتك؛ فإنك لا شك واجدٌ فيها نموذجًا لامرأة قبيحة المنظر قابلتَها يومًا، فملأت عينيك اكتئابًا وصدرك ضيقًا ونفَسك انقباضًا ... إلى أن فتحَتْ شفتيها وتكلمَتْ ... فكأن نافذة من النور قد فُتِحَت ... وإذا الضياء يتدفق من جوفها فيضفي على وجهها حلاوة لم تكن ... وإذا موسيقى الألفاظ في فمها ورقَّة المعاني في حديثها أيدٍ سحرية خفية تعدل وتبدل في تقاطيعها وملامحها وقسماتها.

فالثغر القبيح قد حسُن فجأة في نظرك، والأنف الطويل قد راق في الحال لبصرك ... وإذا أنت تُسائل نفسك في عجَب: ماذا حدث لهذه المرأة؟!

سؤال نلقيه على أنفسنا في المسارح، إذا أتيح لنا يومًا أن نرى أستار «الديكور» الملونة عن قرب ... ما هذا «القماش» الرخيص و«الخيش» المرقع والطلاء الباهت؟ أهذه حديقة

غنَّاء؟! أهذه نافورة ماء؟! فما تكاد أضواء المصابيح الوهاجة «البروجكتور» تنبعث حتى يختفي القماش والطلاء والخيش، وإذا أنت حقًّا أمام فردوس يموج بالزهر النضر ونافورة مرمرية ينبثق منها ماء كأنه ندى الفجر.

هنالك أيضًا لون من القبح ينقلب جمالًا ... لا لانعكاس ضوء داخل عليه ... بل لسبب آخر: هو إشعاعه بنوع من الحرارة اللطيفة والدفء الجميل والرفق الحنون والاطمئنان المريح.

تلك امرأة مثل جوهر «الراديوم» إنها على غراره ليست جميلة المنظر، كجوهر «الماس»، ولكن قيمتها وحُسنها في ذلك الإشعاع الخُلقي الذي يصدر عن طبيعتها الرحيمة الوديعة، وطينتها الطيبة الخيرة، وهي مثل «الراديوم» لا تستمدُّ سلطانها من ذلك البريق الخارجي الذي يزهو به «الماس»، ولا تصلح قلائد وأقراطًا وأساور تُزين النحور والآذان والمعاصم بتألُّقها الظاهر ... ولكنها تستمد السلطة من ذلك المَعين العجيب الذي يُبرئ من الأدواء، وتستلهم القوة من ذلك الحسن الخُلقي الباطني الذي ينثر الراحة ويعجِّل بالشفاء.

حُسن يبهر وحسن يريح ... جمال يُشقي وجمال يَشفي ... وكلاهما يظفر بقلب الرجل ويؤثر في مصيره.

لا وجود إذن لأسطورة «القبح» الذي تخشاه المرأة أكثر من الموت؛ فالقبح قد يتحول إلى جمال، وإن عملية التحويل قد تصبح في الغد ممكنة شائعة، إذا أنشئت تلك «المعاهد» التي تدخلها الدميمة فتخرج مُزوَّدةً بسلاح يعادل سلاح الجمال، وسلطان يوازن سلطان الجميلات.

(آخر ساعة ٧ أغسطس ١٩٤٦م)

الصحافة امرأة

قال لي رئيس تحرير «أخبار اليوم»: إن أنشط مراسل للجريدة في الخارج ليس رجلًا ... بل امرأة ... هي تلك الصحفية الأمريكية التي تمدُّ الدار بأغلب ما يحدث في واشنجطن.

لم يُدهشني هذا القول ... فأنا أعتقد دائمًا أن المرأة أصلح من الرجل في الفرع الأهم من مهنة الصحافة ... وهو استقاء الأخبار ... فالصحفي — فيما أعلم — نوعان: «مُحرِّر» و«مُخبِر»، والمرأة في رأيي خُلِقت بطبعها «مخبرة» من الطراز الأول.

أذكر أن فتاة مثقفة سألتني ذات يوم عن رأيي في اشتغالها بالصحافة ... وهل هذا العمل يناسب طبيعتها باعتبارها امرأة؟ فقلت لها: ثقي أن المرأة مُخبرة صحفية بالفطرة؛ سواء التحقت بجريدة أو التحقت ببيتها! ... لقد كان «آدم» في الجنة هادئًا وادعًا ساكنًا لا يفكر في شيء، ولا يصل إلى عالمه أمر ... فمن الذي جاءه بالخبر الأول في تاريخ الأخبار؟ وأعني به اقتراح إبليس أكل الفاكهة المحرمة؟ أليست هي «حواء» التي نقلت إلى آدم هذا الخبر الهام؟!

من الذي كان يسمع من «الحية» الكلام، ويُجري معها «الأحاديث»، ويستقي منها الأخبار ويُفضي بها إلى آدم؟ أليست هي حواء؟

إني أعتقد أن هذه الحادثة هي أول عمل صحفي منذ بدء الخليقة ...

وبهذا تكون «حواء» هي أول صحفية مُخبرة ظهرت في الكون، قبل أن تخطر فكرة الصحافة على بال مخلوق.

إن الصحافة في دم المرأة ... وهي عندما لا تجد خبرًا تنقله أو شخصًا تستجوبه، تعمد إلى زوجها، فتفضي إليه بكل ما سمعت في يومها، وما رأت في نهارها.

أما إذا كان الزوج هو القادم عليها من الخارج، فإنها تستقبله بالسؤال تلو السؤال: أين كنتَ؟ ومع من كنتَ؟ وفيم كنتم تتحدثون؟ والويل له إذا تهرَّب من الإجابة متذرعًا

بالتعب أو راجيًا تأجيل الحديث، أو مؤكدًا أنه لم يقابل أحدًا ذا أهمية، ولم يصادف شيئًا ذا بال ... فإنها عندئذٍ تعامله كما لو كان وزيرًا خطيرًا يخفي عنها عامدًا أسرار أزمة دولية! فهي تُضيق عليه الخناق، وتحاوره وتداوره بكل حذق وبراعة، فإذا أكَّد لها وأقسم إنه ليس عنده ما يستحق الكلام، صاحت به: أهذا معقول؟ كل هذا الوقت في الخارج وليس عندك ما تقول؟!

وتظل به تستحثُّه، حتى يضطر المسكين إلى أن يُلفِّق لها خبرًا لم يقع، ولكنها بسليقتها تُدرك أن ما قال ليس له نصيب من الصحة، فتبتسم وتسكت متظاهرةً بالإصغاء إلى أن يتورط في سلسلة من الأكاذيب والمتناقضات، فتُمسك به متلبِّسًا بالأكذوبة، فيعترف.

وهنا تقول له: لن أصدِّقك بعد اليوم ... كل أخبارك كاذبة!

– ومن قال لكِ أن تتخذيني مصدرًا للأخبار؟

– لماذا تخترع؟ لماذا لا تقول الحقيقة؟

– لأنه لا توجد حقيقة ... لا يوجد شيء على الإطلاق ... وأنتِ مصممة على أن تنتزعي مني خبرًا بأي طريقة.

– أريد خبرًا صحيحًا لا اختراعًا!

– لا يوجد ... قلت لك لا يوجد ... ليس عندي اليوم خبر صحيح ... لم يبقَ إلا أن أخترع! وإلا فلْأسكت سكوتًا مُطبِقًا ... وإياكِ أن تسألِيني شيئًا أبدًا.

– إذن اخترِع ... هذا — على كل حال — خير من لا شيء!

نعم إن الصحافة الإخبارية ميراث المرأة عن جدَّتها حواء ... فلتهبط ميدانها إذا شاءت، ولتنقُل من الأخبار ما أرادت، ولتستقِ من المصادر ما وجدت، ولن يعوزها اليوم أيضًا في الدنيا «إبليس»، ولن تنقصها «حية»؛ فإن محيط المجتمع من قومي وعالمي يعجُّ ويضجُّ بالأبالسة والشياطين والحيات والثعابين بأحاديثها ومغرياتها ومقترحاتها.

ولعل ملايين السنين قد علَّمت المرأة الآن الحكمة ... فلن تنقل «الخبر» الذي يُخرج آدمها الجديد من «الجنة».

(أخبار اليوم ٢٣ / ٧ / ١٩٤٩م)

في الشباب

حطِّمْ بيت الزجاج

«يمنعني والدي من قراءة المجلات والجرائد على اختلاف أنواعها، ولا يقبل مناقشة في فائدة القراءة والاطلاع، وكلما أبصر في يدي مجلة مزَّقها ... وهو ينهاني عن مصادقة أي شاب، حتى وإن كان مثقفًا، وهو يرتاب في حركاتي وسكناتي، ويخاف عليَّ ... وهو يريدني أن أعيش كعابد في صومعة ... لا يراني الناس ولا أراهم ... إني مشغوف بالقراءة، فماذا أصنع لأُرضي هوايتي، وأُرضي في عين الوقت والدي الذي أكنُّ له كل احترام؟»

هذا والد يريد أن يربِّي ولده كما يُربَّى ذلك النوع من الزهر في بيوت الزجاج ... وأنا لستُ من علماء التربية للبشر أو للزهر حتى أبتَّ في هذا الأمر ... ولكني أعتقد أن كل كائن إنساني أو نباتي لا يتعرض للشمس والهواء والريح والغبار ينشأ رقيق التكوين ضعيف البنيان، يحتاج إلى دثار من العناية ليحيا، وإلى جدران من الحيطة ليعيش، ويكفي أن تُحدِث المصادفة في تلك الدروع ثغرة ذات يوم، لينهار ذلك الكيان عند اللمسة الأولى ... كلا. أيها الوالد الخائف ... ليس هذا هو السبيل ... حطِّم بيت الزجاج ... وأخرِج زهرتك، وعرِّضها برفق للشمس والهواء ... دعْ ولدك يقرأ، ودعه يصادق، ودعه يعيش ربيعه.

لا تخشَ لون القراءة الذي يشغف به ابنك في هذه السن المبكرة. إن الطبيعة أعقل منك أيها الوالد، إنها هي التي تغرس الميول في النفوس، وتُلونها حسب الأسنان والأعمار، كما تُلون أوراق الأشجار.

ففي الشباب يورق الخيال والشعور والعاطفة. وفي الكهولة يورق العقل والحكمة والتجارب ... ومن الخطأ أن يتحدى والدٌ الطبيعة، وأن يتغلب بغرسه على غرسها ... وأن يطلب في ربيع العمر شجرًا قائم الجذع صلب العود تحت عصف الريح وصفير النوء.

ولكنها — فيما يظهر — قصة كل والد: إنه يحكم عليه بمزاجه ويقيس درجة حرارته «بترمومتره» ... وكأنه لا يستطيع له فهمًا ... كما لا يستطيع الشتاء أن يفهم الربيع. فهو

يسخر من زهره الأبيض الطاهر، فوق الغصون اللينة المخضرة، ويهزأ من طيره الصادح ومن ليله المقمر، ومن نسيمه المعطر … ومن كل تلك الرقة التي يملأ بها الدنيا ذلك الفصل الرقيق … إنها في نظر الشتاء الصارم ضعف … لأنه فصل العنف تصطرع فيه العناصر، وتتعارك القوى، إنه الحياة في كفاحها الأكبر.

أنا أيضًا وقفتُ هذا الموقف من والدي — رحمه الله — وأنا في الثانية عشرة من عمري … كنت أرهب أيام الجُمَع؛ لأنها الأيام التي يفرغ فيها لي؛ يناقشني فيما أقرأ، وكان يتخير لي هو نوع الكتب التي يجب أن أقرأها، وكان أخفَّها وطأةً كتاب يحوي «المُعلَّقات السبع» ضُرِبتُ بسببه أوجع الضرب … فقد كان والدي لا يكتفي مني بالحفظ عن ظهر قلب، بل يريد مني أن أشرح له أبيات ذلك الشعر الجاهلي في تلك السن! وكنت إذا عجزتُ عجب لجهلي وحمقي، ثم استشاط غيظًا مني، مدفوعًا — ولا ريب — بالخشية على مستقبلي الضائع، وإذا يده تتناول وجهي بالصفع الثقيل، فلا تتركني حتى يسيل الدم من أنفي وهو يصيح بي:

– يا جاهل! يا غبي! أيوجد أسهل من هذا البيت لزهير بن أبي سلمى! هذا السهل الممتنع يا أحمق!

«ومَن لم يُصانِع في أمورٍ كثيرةٍ يُضرَّس بأنيابٍ ويوطَأ بمَنسِمِ»

ثم يهز رأسه؛ إعجابًا بالحكمة التي ينطوي عليها هذا الشعر … حقًّا هذا شِعر خليق أن يُقدِّره والدي الذي حنَّكه الدهر، وعرف من تجاربه حقيقة كل كلمة في هذا البيت، ولكن الذي يدهشني الآن هو: كيف غاب عن والدي وقتئذٍ أن مثل هذا البيت لا يمكن أن يتصور حقيقته ذهنُ غلام في الثانية عشرة؟!

أترى كان المقصود أن أشرح البيت شرحًا محفوظًا كما ألقيه إلقاءً محفوظًا؟! وما قيمة ذلك؟ إن هذا لا يرفعني عن الببغاء إلا مرتبة بسيطة! ولكن المقصود فيما أعتقد أن يشرح الإنسان المعاني شرحًا محسوسًا … بكل شعوره وكل إدراكه، وكل إحاطته الشخصية لما يشرح ويفسر … في مثل هذه الحالة لا يمكن أن يطلب إلى غلام أو شاب أن يفسر، إلا ما تستطيع تجارب سنه أن تلم به من مدارك وإحساسات.

ومن أجل ذلك يجب على الوالد والمدرسة تجنيب الغلام أو الشاب ذلك النوع من الكذب … الكذب على نفسه وعلى غيره بتلقينه تفسيرات «موضوعة» لأشياء لا تدركها سِنُّه.

لهذا أيضًا يحسُن بالوالد والمدرسة تمكين الصبي أو الشاب من قراءة ما يناسب سنَّه من ألوان القراءات.

ولا تقلق أيها الوالد، ولا تظن ابنك — وهو اليوم غارق في المطالعات التافهة اليسيرة — سائرًا منساقًا في تيارها إلى آخر العمر.

إن تيار الحياة هو الذي يُغيِّر لون المطالعات.

وأنت نفسك أيها الوالد الذي تقرأ اليوم كتب الفلسفة أو مقالات السياسة والاقتصاد أو تعنى بالتاريخ أو بالأدب الرفيع أو بعلم النفس أو بعلم الرياضة ... كنتَ في صباك شغوفًا بقصص «رو كامبول» أو «أبي زيد الهلالي» ... ولكنك لا تذكر ذلك العهد كأغلب الآباء، ويخيل إليك أنك لم تقرأ قصة قط؛ لأن تيار حياتك اليوم دفعك في مجرى بعيد عن حياة الخيال، وبدا لك عقلك وكأنه لم يعُدْ يطيق هضم القصص.

أيها الوالد ... اترك ولدك لسنِّه.

ولا تضعه في بيت من زجاج.

(أخبار اليوم ٢٢ / ٣ / ١٩٤٧م)

ناشئون حائرون

«أنا شاب طموح جدًّا وكسول جدًّا. أحب الراحة، وبيني وبين الجمود عداء. أحب الهناء وأحب المال، وأحب فوق كل هذا الفن، خُلِقتُ هكذا فلا تلومنِّي ... بل أنت خليق أن تعذرني. ثقافتي المدرسية لم تكن عالية جدًّا ... إذ إنها تنحصر في الدراسة الثانوية المصرية، ثم دراسة إنجليزية محضة في كلية سان جورج، ولكن الثقافة التي اكتسبتُها من مطالعاتي الشخصية كانت في يوم من الأيام عالية جدًّا إلى حد يحسدني عليه أقراني، كل شيء كان يؤهلني للفن ... لكن وقع ما لم يكن في الحسبان؛ كان هذا من نحو عام ونصف ... في ليلة شتوية باردة ... إذ عرفتُ امرأة أوروبية غنية ... عرضت عليَّ المال والجاه؛ لأعيش بجوارها، فحملني طموحي وكسلي على القبول، حاسبًا بهذا أني مستطيعٌ بلوغ ما أتمنى؛ فالمال يساعدني على اقتناء الكتب، والقدرة على السفر؛ والراحة تيسِّر لي فرص القراءة والكتابة والانصراف إلى فني ... ولكن عكس ذلك هو الذي حدث ... فإن هذه المرأة صرفتني عن الكتب والورق ... ومرَّ العام دون أن أفتح كتابًا أو أكتب حرفًا ... لأن الكتابة والقراءة تضايقانها ... إلى أن كان أمس؛ إذ غافلتها وفتحتُ كتابًا لك اشتريتُه هو «زهرة العمر» ... لقد شعرتُ بروحي تتصاعد من جديد إلى السماء ... شعرتُ بأنه يجب أن أترك حياتي هذه ... ولكن إلى أين أذهب؟».

اذهب ما دمت شابًّا فردًا طليقًا إلى أي مكان تستطيع أن تنقطع فيه إلى الفن ... اكسب اللقمة من عرق الجبين، إن طريق الفن ليس هينًا؛ إنه يتطلب منك — كما رأيتَ في «زهرة العمر» — أن تُضحِّي من أجله شبابك كله، ولكنك — فيما تقول — شاب كسول وطَموح في عين الوقت ... وتلك — مع الأسف — علاقة لا تدمغك وحدك، بل تدمغ كثيرين من شباب جيلك الجديد! هذا الشباب الذي يريد أن ينال، ولا يريد أن يعمل؛ فهو في الجامعة لا همَّ له إلا المطالبة باختصار البرامج، وزيادة الملاحق، والحصول على ورقة

يطرق بها باب الحياة، منتظرًا أن يُفتَح له في الحال على مصراعيه! فإذا قست عليه الحياة قليلًا ضجَّ وصخب وبكى واشتكى.

هذا الشباب العاجز جعل كل بضاعته الكلام والشكوى والاتهام، ولكن هنالك إلى جانب هذه الطائفة نوعًا آخر من شباب الجيل الجديد سار في الطريق الحق ... وأدرك أن العمل وحده هو الذي يوصله إلى المجد ... فانكبَّ على الدرس انكبابًا عميقًا، وانقطع للعمل انقطاعًا طويلًا ... ونظر مليًّا في تلك الآثار التي خلَّفها له من سبقوه ... ومشى في السبل التي شقُّوها، والطرق التي عبَّدوها له ومهَّدوها ... فأنتج هذه الألوان من الفن ... مما تطالعنا به الكتب والصحف. يقرؤها الناس اليوم، ويذكرون بالخير أسماء أصحابها الشبان الجدد!

هذا الشباب العامل هو الذي اعتمد على بضاعة من خَلْقه وإنتاجه، فأين تريد أن يكون موضعك من هاتين الطائفتين؟ ... قلتَ: إنك كسول طموح ... والكسل في سنِّك جريمة! أنت الآن في مرحلة الفورة الأولى والوحي المتدفق، وعندما يبيضُّ شعرك سيرغمك فنُّك على التريُّث في الإنتاج.

لا بد من أن تعمل الآن كثيرًا ... إن الفن لن يرضى منك بأقل من شبابك كله ثمنًا ... كلنا قد دفعنا هذا الثمن، وعرفنا كيف ننكبُّ على الورق أكثر من عشر ساعات في اليوم ... أكثر من رُبع قرن! وإلا فكيف أخرجنا هذه الثلاثين من المجلدات التي تقرؤها أنت وأقرانك اليوم، فنوفر عليكم كثيرًا من جهد كان لا بد منه لإقرار ما تراه من قوالب الفن؛ تحمَّلناه نحن عنكم، وبذلنا فيه من أجلكم شبابنا الذي ذهب ... ولو عرفتَ ما ذُقناه في زهرة عمرنا من حرمان، وما قاسيناه من مشقة، لهالكم صبرنا ... وربما اتهمتمونا بالغفلة ... وقلتم: فيم كان ذلك الجهد؟ ... وماذا كانت النتيجة؟ لا شيء ... إلا أننا نعيش لنكتب للناس أشياء قد تُصلح من أمرهم، ونكتب لنُعِين الأجيال الجديدة من أمثالكم على أن تبلغوا في الفن ما لم نستطع نحن أن نبلغه ... وإن مدادنا لفي دمكم دون أن تشعروا ... وكُتُبنا مَعابر لكم وجُسور دون أن تذكروا. وإن لم نفعل غير ذلك لكفى به من واجب أديناه نحوكم ... وعليكم أنتم الباقي ... فامضوا قُدمًا، ولا تُضيعوا وقتكم هباءً! أما جزاؤنا المادي على ذلك فليس أكثر من كسْب لُقمتنا بشرف.

والأدب في بلادنا لا يمنح حتى الآن أكثر من اللقمة على شرط أن نعمل في الصحف! ... أما جزاؤنا الروحي فلن ننناله منكم ... لأنكم إذا أخفقتم انهلتم علينا سبًّا وحملتمونا التبعة! ... وإذا نجحتم ... ما حفلتم أن تُبشِّرونا بهذا النجاح ... ونحن في حقيقة الأمر لا

نطمع منكم في شيء ... إلا أن تخرجوا قليلًا بين آن وآن من طيش سِنكم ... ولتبصروا واجبكم وتدركوا أن الخلْق وحده ... الخلْق لا الشكوى، والإنتاج لا الاتهام، والعمل لا الكسل ... هي كلها دعامتكم في مستهلِّ حياتكم!

وهذا شاب آخر يتَّهمنا نحن بالكسل:

«ما بال أكثر أساتذتنا من كبار الأدباء قد انصرفوا عن الإنتاج الأدبي إلى هذا النوع من الكتابة الصحفية؟ ... أين كتبكم؟ ولماذا انقطعتُم عن نشر الكتب ... خصوصًا أنت والأستاذ المازني؟ ... أهو الكسل؟ أهذه خاتمة مطافكم؟ أنستطيع أن نودعكم في ذمة الله والتاريخ؟!»

ليس من حقي أن أجيب هنا عن الصديق الأستاذ المازني؛ فأغلب ظني أنه قد سُئِل مثل هذا السؤال من قبل، وأجاب عنه، ولكني أجيب هذا الشاب بأننا لا نستطيع أن نكسل؛ لسبب بسيط وهو أننا مضطرون إلى العمل ... ففي أعناقنا تبعات.

أما انقطاعنا عن الإنتاج الأدبي والفني فليس بالخطورة التي تتوهمها ... لقد انقطع «بول فاليري» عن فنه عشرين عامًا، شغل نفسه أثناءها بأعمال أخرى ... في حين أن آخر ما نشرناه نحن من كتب لم تمضِ عليه ثلاث سنوات.

ومن يراجع فهارس الكتب لأدباء العالم وتواريخها يجد أحيانًا فترات صمت بين كتاب وكتاب قد تصل إلى سبعة أعوام وأكثر ... فلا يعجب هناك أحد لهذا الانقطاع، فينهض يولول وينتحب، ويُلحِق هؤلاء الأدباء بالأموات، ويستنزل عليهم الرحمات!

فهم هناك يعلمون أن الفن ليس عملًا منتظمًا يُستطاع إنتاجه بالتحديد والدقة في كل عام. ولكن ظروف الفنان الخاصة ومشاعره لهما في عمله دخل كبير، وربما مرَّت به لحظة خاطفة كان لها في قريحته أعظم تأثير، كما أنهم يعلمون هناك أن الفنان ليس آلة تسير دائمًا إلى الأمام؛ فآخر عمل لشكسبير ليس هو خير أعماله ... إنما الفنان كالطير، في علو وانخفاض حسب تيارات الجو النفسي التي تصادفه ... تريَّثوا قليلًا أيها الشبان ... وادرسوا تاريخ الآداب والفنون في البلاد الأخرى!

على أن الذي يبدو لي من خطاب هذا الشاب أن منشأ حيرته هو اشتغالنا بالصحافة!

لكأنه يقول: لقد اكتفيتم بما تكتبون في الصحف؟ وفي هذا أراه على شيء كثير من الحق. الصحافة هي سمة العصر، وقد احتوت الأدب اليوم في كل مكان لا في مصر وحدها.

ومثل هذا يقال عن السينما والإذاعة ... عمالقة ثلاثة تفتح اليوم أفواهها لتبتلع الأدب والفكر والفن، وتهضمه وترسله بعدئذٍ كالرذاذ الخير العميم فوق ملايين الناس! عمالقة اليوم ألسنة الاشتراكية: الصحافة، والسينما، والإذاعة: أعداء ألدَّاء لأرستقراطية الفكر وثقافة الخاصة وفن الصفوة! ... إنها تريد أن يكون الأدب والفكر والفن غذاءً نافعًا للملايين!

(أخبار اليوم ٢١ / ٨ / ١٩٤٨م)

تربية الرأي العام

من نتائج الحضارة الحديثة وآثار التعليم الشامل الموحد، ظهور ما يسمونه «الرأي العام» ... أي شعور الجماعة نحو موقف من المواقف، وقرارها إزاء مسألة من المسائل. وهذا الشعور وهذا القرار ينبعان فجأة وفي عين الوقت، كأنهما خارجان من قلب واحد وعقل واحد ... لكأن هذا الرأي العام — إذن — كائن مستقل، يُخلق ويحبو وينمو إلى أن يصبح قوة ناضجة مُحرِّكة مُوجِّهة، تؤثر في الدولة والمجتمع، ويحسب لها الحُكَّام والمحكومون ألف حساب.

كيف يوجد هذا الرأي العام؟

إنه يوجد كلما وُجِدت التربة الصالحة لظهوره ... وهذه التربة الصالحة هي الأمة الموحدة في جنسها وعقائدها وتقاليدها وآمالها وأهدافها.

وكيف يربَّى هذا الرأي العام؟

إنه يربَّى كما يربَّى كل صغير بالتعليم الشامل الواحد الذي يكون العقلية الواحدة الشاملة ... بهذا النوع من التعليم يشبُّ «الرأي العام» على تفكير واحد، يمكنه من أن يبتَّ في مسائله برأي واحد سريع قاطع ...

لقد كثر التساؤل عن «الرأي العام» في بلادنا ... وهل له وجود حقيقي؟

في رأيي أن بلادنا من أصلح البلاد تربةً لوجود رأي عام ناضج قوي، ولكن الذي يعوزنا هو الاهتمام بتربية هذا المولود ... التربية التي تؤهله لأن يصبح كائنًا مستقلًّا، واقفًا على قدميه، يُفكر بعقل واحد، ويؤثر في الدولة والمجتمع تأثيرًا ظاهرًا فعلًا.

التربة صالحة، ولكن التربية مُهمَلة.

فكل شيء في مصر يجعل من هذا المولود مخلوقًا مشوَّهًا مضطربًا مُبلبل الفكر، مُشتت الرأي ... لأن كل شيء في بلادنا له نسخ متعددة، وأثواب مختلفة ... لدينا تعليم أجنبي

وحكومي وأزهري ودرعمي وجامعي وخارجي ... إلخ. ولدينا قضاء مختلط وشرعي ووطني ... ولدينا أحياء أوروبية، وأحياء وطنية، وأحياء مختلطة ... ولدينا مُطربشون ومُعممون و«مُقبَّعون» و«ملبَّدون» ولابسو الزي الأفرنجي والزي البلدي، والزي المختلط ... أي طربوش ومعطف وجلباب ... أو «طاقية» و«بيجامة» و«قبقاب» ... إلخ.

كل هذا الخلط في أوضاع التعليم والتربية والإطار الذي يعيش داخله الناس في بلادنا ... جعل لهم بالضرورة عقليات مختلفة. كل عقلية تفكر تفكيرًا خاصًّا، وترى الدنيا من زاوية منفردة ... وكان من أثر ذلك أن حُبِس كل فرد داخل حلقة منفصلة من وضعه الذي نشأ عليه، يحسب الدنيا دنياه، ورأيه هو وحده الذي على حق ... لا يفهم جاره، ولا يشعر بشعور مُواطن آخر ... وبتفكُّك عقلية الأمة الواحدة إلى عقلية الرأي العام الموحد إلى عقليات متعددة مختلفة متضاربة يتم تفكُّك الشخصية لأمة من الأمم، وإذا تفككت شخصية أمة فمعنى ذلك انحلالها وموتها.

لذلك كان من ألزم الأمور لنا المبادرة إلى الاهتمام بتربية «الرأي العام» ... تربية قوامها توحيد ثقافته الأولى، وتوحيد محيطه ونظرته إلى الأشياء.

إذا عنينا بهذه التربية الموحدة العناية الصادقة، ظفرنا بعد قليل بأمة قوية الشخصية وبرأي عام موحد الثقافة، متحد في العقلية.

(أخبار اليوم ٣٠ / ٤ / ١٩٤٩م)

تبعاتنا نحو الشباب

عندما كان يقول لي أحدهم إن للكتابات أثرًا في تفكير الشباب، كنت أسمع هذا القول ولا أجد فيه بأسًا ولا خطرًا ... لم أكن أتبين عندئذٍ أن هذا كلام يجرُّ إلى تبعة من التبعات ... ولكن ... يظهر أن ليس أخطر من إنسان يؤثر في عقل إنسان غيره!

رأيت كثيرين من الشبان ينزحون اليوم إلى بلاد الغرب في طلب العلم، فيصطدمون بحياة أخرى وحضارة أجنبية ... فإذا هم — لدهشتي — يفكرون ويشعرون شعور «محسن» وتفكيره في كتاب «عصفور من الشرق» يوم ذهب منذ ربع قرن إلى الغرب ... يرون مثله في الأمريكي رجلًا لو فتحت صدره لوجدت «دولارًا» في موضع القلب! ويهيمون مثله باحثين هناك عن «الروح»، وتسيطر على تفكيرهم مثله فكرة واحدة: هي روحانية الشرق وعظمتها ومواضعها ومنابعها ... ثم يسيرون خلف «محسن» الآخر في كتاب «عودة الروح»، ينقبون كما نقب عن منبع ميراثهم الثقافي والروحي في «رواسب» الآلاف من السنين الكامنة في ضمير مصر؛ ريفها وأهلها الصادقين. ويعتزُّون مثله بأصالة الشعب المصري، ويُرددون ألفاظه المُباهية بعراقة حضارته ... إلخ.

أَمِن الخير أن ندع هذا الشباب يهيم في مثل هذه المشاعر والأفكار؟ أم إن من الخير أن نصدَّه عنها اليوم قليلًا ونقول له: لا تُسرف في تقديس ماضيك، ولا تجعل مركب النقص الذي استولى على نفس «محسن» يستولي عليك، فتخاف على حضارتك المغلوبة أن تغزوها الحضارات الغالبة ... اغترف بشجاعة من كل منبع، وخذ من كل ميراث ... لتُثري نفسك ويتسع أفقك!»

قلت ذلك بالفعل لأديب مثقف ... فقال: لن نتبعك في هذا القول ... نحن نُفضِّل أن نؤمن بمحسن الصادق، هو الذي يُعبر عن شعورنا الحقيقي!

فقلت باسمًا: تتركني وتُصدِّق كتابين سخيفين، وُضِعا فيما مضى ... ليس فيهما من الفن والكمال ...

فقاطعني قائلًا: إن «آلام فرتر» لجوته قاصرة في فنها، ناقصة في براعتها وإتقانها بالقياس إلى قصص «سومرست موم» و«توماس مان»، ولكن قيمة الكتب ليست أحيانًا في كمالها الفني، بل في استطاعتها أن تعيش في حياة طائفة من البشر.

عندئذٍ قلتُ صائحًا: ها هنا تبعة الكاتب الكبرى! إن عقوبة الشنق والحرق قليلة على كاتب يجعل جيلًا يعيش في أفكار ضارة أو خطرة!

ووجه الضرر في أفكاري القديمة هي أنها تجعل الشاب يتخذ من روحانيته الشرقية ورواسب حضارته المصرية سجونًا وحصونًا تعزله عن تفكير العالم، وتمنعه من المساهمة في النشاط الفكري الإنساني العام بقوة وشجاعة، دون أن يرى بهلع في الثقافة الغربية أو الحضارة الأجنبية غيلانًا تستطيع أن تخطف بسهولة روحه من بين جنبيه.

إن روحنا أقوى وأعمق من أن تطغى عليه حضارة من الحضارات، فلماذا كل هذا الخوف من مواجهة الحضارات الأخرى؟ ... كل من أراد أن يكتب عندنا قصة حرص على أن يكتب تحتها بخط واضح «قصة مصرية»، وعني بأن يُجري حوادثها في الأحياء الوطنية، ويصبغها صبغًا عنيفًا بالألوان المحلية، كل ذلك ليُقنع نفسه بأنه يصنع فنًّا قوميًّا ذا روح مصرية أصيلة ... كل هذا نوع من مركب النقص ... وهذا الخوف لا مبرر له ... إن الروح المصري الأصيل يستطيع أن يطبع أي موضوع يمسُّه ولو كان في محيط أجنبي ... كما استطاع الروح الإسلامي أن يطبع بطابعه فن العمارة الذي استنبطه من الوثنيين والبيزنطيين ... وكما استطاع شكسبير أن يطبع بشخصيته الأساطير التي نقلها عن الإيطاليين والدانمركيين والشرقيين.

أيها الشباب! ... لا تفكروا بعد اليوم بعقلية «محسن» ... تلك كانت عقلية شاب الثورة المصرية والبعث القومي ... نحن اليوم قد بُعِثنا ... انهضوا للعمل ... وواجهوا العالم بعقلية «إنسانية» لا تعوقها نعرة من النعرات ... وسِّعوا آفاقكم ولا تخشوا على روحكم ...

خطأ آخر من أخطائي ... وتبعة من تبعاتي ... نشرت منذ أعوام عديدة ... في صفحة ١٠٥ من كتاب «تحت المصباح الأخضر» هذه السطور:

... إن سفور المرأة في مصر قد سبق سفور الأديب، من أجل هذا نرى جانبًا كبيرًا من أدبنا ما زال أدبًا «حبيسًا» تفوح منه رائحة الغرفة المغلقة ... أدب صناعة، وأدب «علب محفوظة» من التعبيرات المستعارة والأساليب والدراسات المستخرجة من خزائن الأقدمين.

أما أدب الهواء الطلق، أدب التعبير عما في أعماق النفس في حرية وأمانة وإخلاص، أدب الحياة النابضة بتفاصيل المشاعر الآدمية ... هذا الأدب الخارج من القلب ليخاطب كل قلب على وجه البسيطة ... هذا الأدب العالمي الذي يؤثر في نفس كل أمة وكل جنس وكل آدمي؛ لأنه نَبَع صافيًا خالصًا حارًّا من قلب آدمي. هذا الأدب حظنا منه قليل؛ لأن حظنا من الصراحة والصدق قليل ... إلخ.

هذا كلام جرت به الأقلام اليوم كثيرًا ... كما رددت الألسن عبارات «الفن والحياة» و«الفن والشعور» ... إلخ. وهو كلام في جملته صحيح، والخطأ فيه يسير ... على أن الواجب يحتم عليَّ أن أخطئ نفسي في بعض المواضع ... إن هذا الكلام على إطلاقه يحتاج إلى تصحيح، وبعض الكلمات تحتاج إلى تجديد ... لقد أحيت وزارة المعارف ذكرى أبي العلاء المعري، وأرسلت إليَّ نسخة من كتاب «سقط الزند»، فعكفت على مطالعته وخرجت من ذلك أقول:

«فن هذا العبقري «رهين المحبسين» ... أهو فن هواء طلق وقلب وشعور وحياة؟! أم هو فن رجل ضرير حبيس حجرة مغلقة، يمتعنا حقًّا ... ولكنه إمتاع لا يثير عواطفنا بقدر ما يثير تفكيرنا، ولا يهز قلوبنا بقدر ما يهز رءوسنا، ولا نجد فيه اللذة سهلة ميسرة، ولكنا نبلغها بذهننا بعد كد وجد وغوص!»

إذن يجب أن أصحح للشباب كلامي المطلق الذي نشرته منذ أعوام ... وأن أقول لهم إن الشعور الحار وحده بما يثيره من انفعال، ليس هو كل الفن، ولا هو خير الفن في بعض الأحيان ... لأن المتعة التي تأتي من غير غوص هي في أكثر الأحوال رخيصة ... و«آلام فرتر» العاطفية أقل رتبة في نظر جوته نفسه وتاريخ الأدب من «فاوست» الذهنية.

خطأ قولي السابق أني لم أحدد معنى «القلب» ... القلب في الفن هو الصدق ... لا الصدق بمعناه الضيق، المقصور على الشعور العاطفي أو الوجداني ... بل أيضًا صدق الشعور بحقيقة فكرة من الأفكار ... على هذا النحو يجب كذلك تحديد معنى «الحياة» في الفن ... ما من شك أن الفن هو تعبير عن الحياة ... وليس من السهل تصور فن منفصل عن الحياة إلا أن نتمثل فن الزخرفة الإسلامي، الذي لا يُصوِّر زهورًا ولا طيورًا ولا حيوانًا ... ويقوم على تخطيط هندسي ... فن عريق بديع لا شك فيه، ولكن نسبته إلى الحياة التي نعرفها يحتاج إلى مشقة التخريج ... هذا التجريد الذهني في الزخرف الإسلامي يماثله التجريد الذهني في الفن المصري القديم، بخطوطه الرئيسية العارية من اللحم والدم. لقد كان همه أن يُحيي الفكرة في الحجر لا أن يقلب الحجر حياة كما فعل الإغريق ... مهما

يكن من أمر تفضيلنا هذا النوع أو ذاك، فإن اختلاف العقليات والاتجاهات والأنواع في الأدب والفن، يحملنا على أن نوسع معنى «الحياة» حتى تشمل كل هذه الألوان من الآداب والفنون ... لا بد أن تكون «الحياة» في الفن ليس فقط كل ما يقع في العالم الخارجي، ويضطرب فيه الإنسان بحسه وقلبه ومشاعره، بل أيضًا كل ما يقع في العالم الداخلي، ويستخرجه الإنسان بفكره وذهنه وتأملاته ... إن «الحياة» تسكن في كل جزء من أجزاء الإنسان الحي ... في قلبه وفي غريزته وفي حسه وفي رأسه ... ولو جئتَ بإنسان، شاعر أو مفكر وحبسته في جب، وأغلقت عليه بسبعة أختام، وتركته لأعوام، لأخرج بعد كل ذلك حياة.

ذلك بعض من تلك الأخطاء التي تركناها تسعى في جحور الكتب إلى وعي الشباب دون انتباه ... حبذا لو عدنا من حين إلى حين نراجع ما نشرنا، ونسترجع ما أصدرنا ... كما تفعل المصارف المالية عندما تسترجع من أيدي الناس أوراق العملة الممزقة القديمة، كلما مر عليها قدر من السنين!

(أخبار اليوم ٢٨ / ٥ / ١٩٤٩م)

في الفن

الجاحظ ينظر إلينا

قلما يحتفظ الإنسان بشيء من آثار الصبا ... فإذا عثر على أثر من تلك الآثار — وقد وخطه الشيب — كان لذلك في نفسه أجمل الوقع ... وإني — لِكثرة التنقل في الحياة، وبُعد الشقة في الزمن — قد فقدتُ كثيرًا من آثار صباي.

ولكني عجبتُ ذات يوم، وقد وقع في يدي كتاب لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ... كُتِب على جلدته اسمي فوق عبارة: «سنة أولى فصل أول» بخطِّي الذي كان لي في ذلك الوقت ... وما رأيتُ أنه مُختلفٌ كثيرًا عن خطِّي في هذه الأيام ... لقد فرحتُ بذلك الأثر ورجعت بفكري القهقرى، وأنا أتساءل: أحقًّا كنا نقرأ الجاحظ في مثل تلك السن؟! أغلب الظن أن هذا الكتاب لم يكن من مقررات المدارس في ذلك العهد، إنما هو نوع من المطالعات الخاصة التي كنا نغرق فيها خارج الدرس؛ ذلك أني لم أَنْسَ صفحة من صفحات هذا الكتاب الذي كنت أقرؤه كثيرًا في ذلك الحين، مع ما كنت أقرأ من آثار الأدب القديم، والحق أن الجاحظ وقد مضى على وفاته أكثر من ألف عام هو الأستاذ المباشر لأكثر زعماء القلم في الأدب العربي المعاصر ... لأنه رفع علم التجديد وعلم الكتاب.

إن الأسلوب أداة للتعبير القويم عن النفس والفكر، لا وشيٌ من اللغو، ولا بضاعة من الزخرف يراد بها اللهو، وإني لَموقن أن الجاحظ لو استطاع أن ينظر إلينا من عالمه الآخر، لما أنكر كثيرًا من الأساليب التي ينشئ بها كُتَّاب اليوم أفكارهم ... بل إنه؛ لِفرط صدقه في تصوير نفسه وعصره، وصراحته في التعبير عن المشاعر الإنسانية الثابتة فيه وفي الناس ... قد لا يرى إلا تغييرًا يسيرًا في المحيط الأدبي.

بل في كل مكان وزمان، يوجد به أدب وأدباء، وكُتب ومؤلفون ...

ولنستمع إليه إذ يقول بلُغته التي كان يكتب بها منذ عشرة قرون: «... إني ربما أَلَّفتُ الكتاب المحكم المتقن في الدين والفقه والرسائل والسيرة والخطب والخراج والأحكام وسائر فنون الحكمة ... وأنسبه إلى نفسي، فيتواطأ على الطعن فيه جماعة من أهل العلم، بالحسد المركب فيهم، وهم يعرفون براعته، وأكثر ما يكون هذا منهم إذا كان الكتاب مؤلَّفًا لملك، معه المقدرة على التقديم والتأخير، والحط والرفع والترهيب والترغيب؛ فإنهم يهتاجون عند ذلك اهتياج الإبل المغتلمة، فإن أمكنتهم الحيلة من إسقاط ذلك الكتاب عند السيد الذي أُلِّف له؛ فهو الذي قصدوه وأرادوه. وإن كان السيد المؤلَّف له الكتاب نحريرًا نقَّابًا وحاذقًا فطنًا، وأعجزتهم الحيلة ... سرقوا معاني ذلك الكتاب، وألفوا من أعراضه وحواشيه كتابًا، أهدوه إلى ملك آخر. وهم قد ذموه وثلبوه لما رأوه منسوبًا إليَّ وموسومًا بي. وربما أَلَّفتُ الكتاب الذي هو دونه في معانيه وألفاظه، فأترجمه باسم غيري وأحيله على من تقدمني عصره — مثل ابن المقفع — فيأتيني أولئك القوم الطاعنون على الكتاب الذي كان أحكم من هذا الكتاب؛ لاستنساخه وقراءته عليَّ، ويكتبونه بخطوطهم، ويُصيرونه إمامًا يقتدون به، ويستعملون ألفاظه ومعانيه في كتبهم وخطاباتهم؛ لأنه لم يُترجم باسمي، ولم يُنسب إلى تأليفي!» ... إلخ.

ما الذي تغيَّر اليوم من هذه الصورة؟ وما الذي بقي؟ ما من ريب في أن الغرائز البشرية التي وصفها «الجاحظ» لا سبيل إلى زوالها ... أما ذلك السيد أو العظيم الذي كان يحثُّ الأدباء على التأليف، ويُرغبهم فيه بالمكافأة والرفع والتقديم، فقد اختفى ظله ... وحلَّ محله سادة وعظماء لا يقرأون ولا يكافئون ... ولكنهم يُنفقون المال على جياد السباق، ويحيون الليل على موائد القمار، ويُهدون الحليَّ والجواهر إلى راقصات الملاهي ومطربات الخدور ... كان العِلم فيما مضى زينة للسيد، ولؤلؤة في رأسه، ومزية يسمو بها على تابعه ... فإذا الجهل اليوم غمرة تطوي السيد مع تابعه، وسلسلة تربط الرءوس بالأقدام. وإذا الجميع كتلة حالكة في دَرَك واحد من الأدراك.

لقد استولت على النفوس جميعًا روح الاستهانة بالمُثل العليا ... وتملَّك القلوبَ والأجسامَ شيطانُ المتعة اليسيرة العاجلة ... ما من أحد يريد أن ينقطع إلى علم أو يتوفر على فن ... إنما الكل يتطلع إلى الثمرة قبل الشجرة! ودبَّ هذا الروح في شباب اليوم ... فلم يعد لهم جَلَد على درس، أو صبر على كدح ... لا ينظرون إلى الجهد الذي يجب أن يُبذل، ولكنهم يبصرون المراتب التي يجب أن يرقَوْا إليها ... لا يريدون أن يضيعوا وقتًا في الغرس البطيء، والإعداد الطويل ... ولكنهم يريدون ثمرة غرس الآخرين، عَجِلين

متلهِّفِين! لذلك قلَّ الاطلاع العميق وندرت القراءة المُجْدية، وكسدت الكتب القيمة، فاختلَّت الموازين وفسدت القيم!

ذلك هو عصر «الجهل الشامل» الذي نعيش فيه ... وما أرى الجاحظ إلا راضيًا عن نفسه قانعًا بمصيره، لو أتيح له أن ينظر إلينا اليوم من غابر زمانه.

(أخبار اليوم ٢١ / ٢ / ١٩٤٨م)

كومبارس مسرحيتي من الرهبان

مرة أخرى يتاح لي أن أشاهد إحدى مسرحياتي تُمثَّل خارج مصر في لغة أجنبية، والمسرحية هذه المرة هي «أهل الكهف»، واللغة هي الإيطالية، والمدينة هي «بالرمو»، والجمهور هذه المرة أيضًا كان جمهورًا دوليًّا، ضم الإيطالي والفرنسي والأسباني واليوناني والعربي … وغيرهم من أبناء الدول المشتركة في المؤتمر الذي عُقِد هذا الأسبوع في هذه المدينة؛ لدراسة شئون البحر الأبيض المتوسط، كما ضم الوافدين من كل جهة لحضور المعرض الصناعي الفني القائم في تلك الفترة.

وكان الجو لطيفًا في هذه المدينة التي تحيط بها الجبال المكسوَّة بالخضرة، وكان الفندق الذي نزلت فيه — ضيفًا على الحكومة الإيطالية — قصرًا منيفًا من القصور القديمة يُشرِف على البحر.

ما كدتُ أفتح نافذتي في المساء عند الغروب على حديقته، حتى أخذتني الروعة بل وبعض الروع؛ فقد رأيتُ الماء الأزرق يكاد يعبث بأقدام النخيل المشوقة كالرماح العربية، وإلى جانبها أشجار الصنوبر البحرية، داكنة كرءوس الحبشان، وحولها الأزهار البرية تنشر أريجها ممزوجًا بعطر الليمون المزهر فوق شجره المثمر في حجم البيض ولون الكهرمان. منظر لا يوصف بالنثر؛ لأنه هو الشعر والسحر بغير كلام ولا شعوذة، ثم أخذتني هزَّة خوف؛ فقد لمحتُ فجأة بين الأشجار أجسامًا تتحرك على غلائل رِقاق، ليست قطعًا أجسام بشر؛ لأنها تطير في الهواء، فقلتُ في نفسي: هذا قصر قديم، والمكان ساحر أو ربما مسحور، أو قُدِّر لي هكذا أن أرى الأرواح رؤية العين تهيم في الحديقة قبل أن يدخل الليل؟! وكيف أستطيع بعد ذلك المبيت وحدي في حجرتي طول ليلتي؟!

ولكن الله لطف بي وبغرفتي، فقد تبيَّن لي بعد قليل أن الغلائل الرِّقاق المتحركة كالأجسام في الظلام ليست سوى دخان سيجارة أحد النزلاء في الحديقة! هذا الدخان

العادي كان يتماوج بين الأشجار الداكنة متخذًا من الأشكال ما يشبه أرواح الأساطير أو عرائس المروج ... هكذا يلعب الخيال أحيانًا برءوس الناس في بعض الأمكنة وبعض الظروف.

ولكن السحر الأعظم هو المكان الذي مُثِّلت فيه المسرحية ... لم تكن المسارح المغلقة — على كثرتها وفخامتها في المدينة — صالحة في حرِّ الصيف، فكان من الأنسب التمثيل في الهواء الطلق، وليس هذا بالغريب؛ فمسرحية «فوست» لشاعر ألمانيا «جوته» تُعرض كل صيف في الهواء الطلق، ولكن الطريف حقًّا هو اختيار الموقع؛ لقد اختاروا لأهل الكهف موقعًا من أهم المواقع الأثرية في تلك البلاد، هو دير «مونريالي» ... ذلك الدير المُشيَّد على الطراز البيزنطي العربي النورماندي، فالعرب في مجدهم قد جاءوا إلى تلك البقعة من الأرض وأثَّروا فيها وتأثَّروا، وأهل الكهف — كما هو معلوم — ورد ذكرهم في القرآن الكريم، فقد هربوا بدينهم المسيحي من ذلك الوثني الآمر بالمجزرة، واعتصموا بكهف ناموا فيه إلى أن استيقظوا بعد ثلاثة قرون في عهد ملك مؤمن بدين المسيح، فعرض هذه القصة في ديرٍ فكرة تدل على فهم وذوق، لا لأن التمثيل في الدير أمر غريب في أوروبا، على العكس، إن خير التمثيل ما نشأ في رحبات المعابد، وإلى يومنا هذا تُعرض مسرحية «يدرمان» لشاعر النمسا «هوفمانستال» كل صيف بسالزبورج أمام كاتدرائية سان بيتر. بل إن مسرحية شاعر فرنسا «بول كلوديل» عن «مريم» تُمثَّل هذا الأسبوع بالذات في دير «سان سيفيران»، ولكن الغريب في أمر «أهل الكهف» هو اختيار الدير ذي الطابع العربي المسيحي ... ما من إطار يصلح حقًّا لروح هذه القصة مثل هذا الإطار الفريد، ولقد بُذِل في إخراجها من العناية ما أثَّر في نفسي، فقد قيل لي إن إعدادها تم تحت الإشراف المباشر للسنيور «بيترو كاستليا» القائم هناك بأعمال وزير المعارف. والواقع أن أبرز مظهرين للفن في بالرمو إبان المعرض والمؤتمر هناك هما: وجود الموسيقي المشهور «بيير مونتيه» آتيًا من أمريكا؛ ليعرض مع فرقته بعض آثار بتهوفن وفردي، ثم عرض مسرحية «أهل الكهف». غير أني شعرت أن الاهتمام العام بالمسرحية من الجمهور والسلطات كان في المحل الأول.

وجاءت ساعة التمثيل، وامتلأت رحبة الدير بالمشاهدين ... تلك الرحبة المفروشة بالعشب والزهر، تحيط بها الأروقة ذوات الأعمدة العربية النورماندية.

وسُلطت الأنوار الكشافة على منظر كهف، هُيئ في فجوة بين عمودين، وظهر أهل الكهف الثلاثة نائمين ... ثم ... ثم بدأت مفاجأة لم أتوقعها: جوقة من راقصات الباليه

يتحركن حركات توقيعية على أنغام موسيقى خفية، وكأنهن يمثلن الأحلام التي عمرت رءوس النائمين طيلة المئات من الأعوام. ثم اختفت هذه الأحلام باستيقاظ النائمين الثلاثة، وبدأ الكلام بينهن بالإيطالية التي لا أفهم منها حرفًا، وحدث لي هنا ما حدث لي في سالزبورج يوم مُثلت «بجماليون» بالألمانية. اكتفيتُ من المشاهدة بقراءة ما يبدو على وجوه الحاضرين الفاهمين من أثر، وإنها لتجربة ممتعة حقًّا، تستحق ما بَذلتُ من متاعب السفر، أن أعرف روايتي لا من سطور كتاب، بل من المسطور في وجوه الناس، من مختلف الأجناس!

وجاء الفصل الثاني، ثم الثالث، وحوادثهما تدور في بهو القصر ذي الأعمدة، ولم يكن هنا من حاجة إلى «ديكور» مسرحي؛ فأعمدة الدير الحقيقية كانت أفخم من كل تزييف وتزويق، وظهرت بطلة القصة «بريسكا» — تقوم بتمثيلها ممثلة السينما والمسرح الإيطالية «نيدا نالدي» — ففهمت لأول مرة مَن هي «بريسكا» وما كُنْه الحب الذي ماتت به، وعندما قامت صائحةً على جثة حبيبها الذي لفظ أنفاسه حينما واتته السعادة، خيل إليَّ أني أمام مشهد «موت إيزوليت» في أوبرا «فاجنر» المشهورة ... كانت «نيدا نالدي» تتكلم على أنغام موسيقى غير منظورة كلامًا خِلْتُه غناءً، وكان إلى جانبي أحد رجال الدولة الإيطاليين، فهمس في أذني: «ما أصلح هذه المسرحية أن يُصنع منها أوبرا!».

يا للعجب! نفس هذه العبارة سمعتُها في سالزبورج من الموسيقي النمسوي «بومجارتنر» وهو يشاهد «بجماليون»!

ما علاقة مسرحياتي بالموسيقى؟ لستُ أدري.

ولكن أعجب ما حدث في تمثيل «أهل الكهف» ... بل أعجب ما حدث في تمثيل مسرحية على الإطلاق إلى يومنا هذا، هو أن أجراس الدير دقَّت للصلاة في اللحظة التي دار فيها الحديث بين أهل الكهف عن الإيمان والدين ومجد المسيح.

وسمع الجمهور من بعيد تراتيل الرهبان آتيةً من داخل الدير كما لو كانوا «كومبارس» في أوبرا أو مسرحية!

وما من شك أن هذا لم يكن مقصودًا؛ فمهما يكن من أمر الاهتمام بالرواية، فليس من المعقول أن يسمح دير عظيم كدير «مونريالي» باستخدام رهبانه على هيئة «كومبارس» في رواية من الروايات!

ولكن الرهبان كانوا في أعماق ديرهم، لا يشعرون — فيما أظن — بما يجري خارجه من تمثيل ... وكانوا يرتلون صلاتهم حقًّا، ويدقون أجراسهم حقًّا، وهم لا يعلمون أنهم يساهمون بذلك في الإخراج، ويشاركون في التمثيل، مساهمة فعَّالة ومشاركة رائعة!

لقد كانت أصوات ترتيلهم تصل إلى آذاننا خافتة هامسة عميقة جليلة، لا تطغى على حوار الممثلين، ولا تصرف الأذهان عن مجرى القصة... كانت عنصرًا مصاحبًا يُساير المسرحية بمقدار ويماشيها باتساق، كأن مُخرجًا بارعًا أنفق الجهد وفتق الحيلة؛ لينظمها هذا التنظيم!

ولكن الحقيقة امتزجت بالخيال، والواقع اختلط بالفن، في لحظة نادرة من لحظات المصادفات العجيبة ... فكان التأثير بالغًا.

ونجحت الرواية.

وجاء من يقول إن النية متجهة إلى إعادة إخراجها على أحد مسارح روما في الشتاء القادم ... فصحتُ من فوري: والكومبارس؟!

حقًّا ... هذا الكومبارس ... أين نجد مثله في روما أو في أي مسرح على وجه البسيطة؟! هذا الكومبارس المستتر الأمين الذي حسب أنه يعمل مخلصًا لوجه الله ... فإذا هو يعمل أيضًا ببراعة فائقة — من حيث لا يدري — لوجه الفن ... ولوجه بالرمو (إيطاليا).

(آخر ساعة ١٦ يونيو ١٩٥٤م)

ألف ليلة وليلتان

شهرزاد: لقد فرغتُ من قصصي يا شهريار ... ونحن الآن في الليلة الثانية بعد الألف! فإذا أردتَ أن تقتلني، كما فعلتَ بنسائك الأخريات، فافعل.

شهريار: أقتلكِ أنتِ؟ ... إنما أود الآن لو أقتل أشخاصًا آخرين!

شهرزاد: مَن هم؟

شهريار: وزرائي؛ أولئك المراءون المنافقون، الذين ما عنوا قط أن يُطلعوني على ما أطلعتِني أنتِ عليه ... لشد ما كنت أجهل الناس، بل شد ما كنت أجهل نفسي ... لطالما حسبتُ الدنيا طعامًا وشرابًا ونساءً! ولكنكِ أبرزتِ لي في أحاديثكِ عالمًا زاخرًا بشتى المعاني والألوان، وأظهرتِ لي الناس في مختلف أحوالهم وطبقاتهم. لقد رأيتُ الفقر والجوع والعري والبؤس والظلم واللوم ... إلى جانب الغنى والترف والرفاهة والنعيم! لقد كشفتِ لي عن الجانب المستور في سوادِ شعبي، فعلمتُ إلى أي مصير يسير ... قصصكِ يا شهرزاد إن هي إلا تقرير خطير، عرفتِ كيف تقدمينه إليَّ لأتدارك الأمور، قبل فوات الأوان!

شهرزاد: إني ما قصدت يا مولاي إلا تسليتك، وإيناس وحشتك في تلك الليالي الطوال!

شهريار: أحمد لك هذا التواضع ... إنك بارعة في مخاطبة الملوك ... اطمئني! لن أمعن في هذا البحث عن مقصدك ... يكفيني أني عرفت وفهمت ... لقد كنتِ لي مرآة صادقة يا شهرزاد! رأيتُ فيها حقيقتي ... وحقيقة شعبي! وتلك أنفَس مرآة يستطيع أن يعثر عليها ملِك!

شهرزاد: هذا إطراء يسرُّني ويخيفني.

شهريار: ولماذا يخيفك؟

شهرزاد: ليس أقصر من عمر مرآة في يد ملِك! إنه قد يحطمها إذا ضاق ذرعًا بما تعكس من حقيقة!

شهريار: لست أنا الذي يفعل ذلك يا شهرزاد ... ربما كنتُ كذلك فيما مضى ... أما اليوم فأنا رجل آخر! ألا تبصرين في وجهي تغييرًا؟ ألا تلمحين في عيني بريقًا؟ ألا ترين أني مُقدِم على أمر جلل؟!

شهرزاد: أرى حقًّا أنك يا مولاي ...

شهريار: نعم أصبحتُ رجلًا أعرف واجبي وأدرك مهمتي ... وأعلم ما يجري حولي ... لم أعُد ملكًا يدفن رأسه في وسائد النساء، لقد رفعتِ بيدك يا شهرزاد رأسي برفق كي أبصر ... وجذبتِني بلطف عن جو العطور والبخور، وجعلتِني أفتح نافذتي المسدلة الأستار؛ لأستنشق رائحة الخطر المقبل عليَّ ...

شهرزاد: أي خطر يا مولاي!

شهريار: أخبريني بالصدق يا شهرزاد ... ماذا يقول الناس عني؟ ... تكلمي ... ما بالكِ تصمتين؟ وما بال الحيرة تعلو وجهك، والحرج يعقد لسانك؟ إذن فاسمعي ... ليس من العسير عليَّ الآن أن أستشفَّ رأي الناس فيَّ، إنهم — ولا ريب — يقولون في كل مكان: «ماذا صنع لنا ملكنا شهريار غير أن أخذ من بيننا العذارى، يستمتع بأجسادهن في كل ليلة، ويسلمهن للجلاد كل صباح؟ ... أمَّا نحن الشعب فما فكر فينا وفي بؤسنا وشقائنا بمثل ما فكر في متعته ولذَّته ...»[1]

شهرزاد: ...؟!

شهريار: أتمزحين يا شهرزاد؟ لو كان وزرائي مسئولين حقًّا معي لأخبروني بما يقال ... كلهم — ولا ريب — قد سمعوا مثلك ما يقوله الناس ... ولكنهم يُحجمون عن إخباري ... لأنهم يعلمون أنه لن يقع عليهم وزر ولا ضرر ... فإن الرياح لا تصيب إلا تيجان النخيل ... أما هم ففي الظل آمنون يتلقَّون التمر، في رأسي فكرة يا شهرزاد ... أنتِ أول من أطلعه عليها ... سأقتل هؤلاء الوزراء.

شهرزاد: تقتلهم؟

شهريار: لا تفزعي ... ليس بالسيف أقتلهم ... ولكن بشيء آخر.

شهرزاد: بماذا؟

---

[1] اتصل بي النائب العام — وهو زميل سابق في القضاء — ليقول لي إن الناس فهمت أنك تقصد جلالة الملك فاروق في صورة شهريار، وما يجب أن يفعل في الظروف الحاضرة، فما قولك؟ فقلت له: إن الكاتب يكتب ما يكتب، والقارئ يفهم ما يفهم.

شهريار: بالمسئولية ... بالتبعة ... سأضعهم هم في مهب الريح. سأقول لشعبي: اختر لنفسك وزراءك ... واشترط عليهم شروطك ... وألزمهم بحاجاتك، واجعلهم منوطين بمطالبك، مسئولين عن هنائك ... فإذا قصَّروا وتهاونوا فاعزلهم واختر غيرهم. وأنا مُقرُّك على كل تصرفاتك؛ لأن كل غايتي مصلحتك أنت وحدك يا شعبي، وكل أملي هو في سعادتك ورفاهتك.[٢]

شهرزاد: أوَتفعل ذلك حقًّا؟

شهريار: وما الذي يمنعني من فعله يا شهرزاد؟ أليس من واجبي أن أفتح للشعب طريق هنائه ليبحث عنه بنفسه؟ لا أريد أن يقال بعد اليوم إن مفتاح هذا الطريق تحت وسائدي الموشاة ... سأُلقي به إليهم من هذه النافذة!

شهرزاد: وماذا تصنع بعد ذلك يا مولاي؟

شهريار: أُشرِف عليهم، أراقبهم من علٍ، وأرسل إليهم مع النسيم أحرَّ قُبلاتي وأعزَّ تمنياتي!

شهرزاد: أهي قصصي التي أوْحت إليك بمثل هذا الشعور النبيل؟ إني إذن لامرأة عظيمة! أعترف لك أني ما كنت أتوقع أن يحدث هذا كله يوم جئتك في الليلة الأولى.

شهريار: وأنا ما كنت أتوقع إلا أن أرى دمك يُسفك في اليوم التالي.

شهرزاد: ها قد مضت ألف ليلة ثم ليلتان، ولم تسفك دمي، ولم تُقبِّلني!

شهريار: حقًّا يا شهرزاد! لقد شغلني ذهنُك عن دمك وعن فمك!

(آخر ساعة ١٨ فبراير ١٩٤٨م)

[٢] فهم الناس من ذلك أني أدعو إلى الانتخابات الحرة التي كان القصر الملكي يعارضها.

«فن الزحلقة»

وليس المقصود هنا فن «الزحلقة» فوق الجليد في المشاتي الجبلية، بل فن «زحلقة» المسئولية والاختصاص في أداتنا الحكومية. وهو في الحق فن قد اكتسبناه بكثرة الممارسة، وحذقناه بطول المران … ولعل من سبق له اشتغال بالقضاء، خصوصًا في الأرياف قد مرت به — على الأقل مرة — حادثة «الجثة» التائهة … جثة القتيل الملقاة في النهر، تُستكشف عند المركز، فيتبرم رجال الحفظ بها وبعواقب انتشالها، وما يؤدي إليه أمرها من تحقيق وتفتيش وتشريح، وكد وتعب وجري وراء الفاعل وتحمُّل النتائج وتعرُّض لتبعات. فما لهم ووجع الدماغ! … وفي الإمكان التعامي عن الجثة بلباقة، أو تخليصها من أعشاب الشاطئ برشاقة، ودفعها إلى التيار، هدية كريمة إلى مركز آخر! … ويحملها التيار إلى المركز الآخر فيصنع بها ما صنع الأول متحاشيًا لمسها، متهربًا من استقبالها، متبرعًا بها للمركز التالي! … وتسبح على متن التيار إلى المركز التالي، فيتنكَّر لها هو أيضًا، ويتأفف ويتضجر ولا يقر له حال ولا يهدأ له بال حتى «يزحلقها» إلى من بعده … وهكذا دواليك … إلى أن يشاء الله، ويرسي هذه الجثة على بَرِّ السلامة، وبرُّ السلامة هنا هو الجهة التي لا تستطيع لهذه الجثة «زحلقة»، ولا منها هروبًا ولا فكاكًا ولا خلاصًا ولا فرارًا. يَلبسها «الاختصاص» كأنه «خاذوق» تقبله مرغمة مذعنة وأمرها إلى الله!

أما الوقت الذي ذهب هباءً في هذه التصرفات، وأثر الجريمة الذي ضاع، والمصلحة العامة التي فاتت؛ بسبب هذه الإجراءات … فمن يدفع ثمنها؟ وعلى من يقع وزرها وقد طُمِست معالم المسئولية بين هذه المراكز المختلفة؟!

هنا براعة فن «الزحلقة»!

وليس هذا الفن مقصورًا على الريف دون المدن، ولا على زمن دون زمن، ولا على مصلحة دون مصلحة؛ فالتفوق فيه — بحمد الله — مشاع بين الجميع! ... وها هي ذي رسالة حديثة من قارئ فيها بعض الدلالة:

بعد التحية ... أتشرف بالإحاطة بأني مرضت، فاضطررت إلى شراء قطن من صيدلية مشهورة بالقاهرة ... ولما قدَّم إليَّ الصيدلي القطن المطلوب لاحظت أنه غير مصري الصناعة، بل فلسطيني صهيوني متجنلز، فرددتُ إليه لفة القطن راغبًا إليه استبدالها بقطن شركة مصر للغزل؛ لأنه النوع المصري الوحيد، ويجب أن نُفضِّله، ولكن الصيدلي اعتذر بعدم وجود الصنف المصري. ولما كان الوقت ليلًا والضرورة مُلحَّة، أخذتُ ذلك النوع وانصرفتُ به ... على أني ما كدتُ أفتح اللفة حتى لاحظت بها قطعة كبيرة من القطن محتويةً على مواد غريبة، فأخذتني العزة القومية والرغبة في المحافظة على سلامة المجتمع ووقايته، فبادرتُ إلى إرسال تلك القطعة ذات المواد الغريبة إلى معامل الصحة ... فجاءني الرد الآتي نصه:

حضرة المحترم منصور أفندي علي حسن

نُعيد لحضرتكم رفق هذا القطن الطبي الذي تلقَّته المعامل طرد بريد رقم ١٢٢ في ١ / ١١ / ١٩٤٦ والمطلوب فحصه للمواد الغريبة؛ وذلك لعدم اختصاص معامل الوزارة للفحص المطلوب.

واقبلوا تحياتنا.

٢٠ / ١١ / ١٩٤٦

مدير عام مصلحة المعامل

توقيع باللغة الإنجليزية

ولم أستسِغ خطاب المعامل، فأرسلتُ خطابًا شخصيًّا إلى معالي وزير الصحة السابق ... فأجاب سعادة وكيل الوزارة بالآتي نصه:

حضرة المحترم منصور أفندي علي حسن

بالإحالة إلى كتاب حضرتكم المؤرخ ٣٠ / ١١ / ١٩٤٦ الخاص بطلب فحص عينة قطن للمواد الغريبة بمعامل الوزارة نحيط علم حضرتكم بأن هذا الفحص لا

يقع في دائرة اختصاص المعامل المذكورة، ولهذه المناسبة نشير على حضرتكم بإرسال هذه العينة إلى مجلس مباحث القطن بالأورمان – جيزة.

واقبلوا تحياتنا.

١٩٤٦/١٢/١٥

وكيل الوزارة للشئون الطبية

(إمضاء)

ونفذت إشارة سعادة وكيل وزارة الصحة، وأرسلتُ قطعة القطن الطبي إلى مجلس مباحث القطن بالأورمان – جيزة، وهو تابع لوزارة الزراعة، فجاءني الرد الآتي نصه:

حضرة المحترم منصور أفندي علي حسن

ردًّا على خطاب حضرتكم المؤرخ ١٩٤٦/١٢/٢٢ الخاص بطلب فحص عينة القطن الطبي المرسلة نفيدكم أن المختص بهذا الفحص مصلحة الكيمياء التابعة لوزارة التجارة والصناعة.

وتفضلوا ...

١٩٤٦/١٢/٢٥

مدير قسم النباتات

(إمضاء)

وهنا وقف بالطبع ذلك المتحمس «للعزة القومية» عن المضي في طلبه، وفترت فيه «الرغبة في المحافظة على سلامة المجتمع ووقايته»؛ فقد أيقن أنه سيُقذف به مع لفة قطنه من وزارة إلى وزارة، إلى أن يبلى القطن أو يذهب أثر المواد الغريبة، أو ينفد صبره أو يضيق صدره أو تطير بقايا المشاعر الطيبة التي دفعته إلى الاهتمام بأمر يكلفه الوقت والمال وشغل البال، بإرسال طرود البريد وتحرير الخطابات، والأخذ والرد في سبيل غرض لا همَّ له فيه إلا الصالح العام!

والفضل في ذلك كله لفن «الزحلقة»!

(أخبار اليوم ١٩٤٧/١/١١م)

أشخاص رواياتي يطالبونني بإطعامهم

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

صورة عجيبة من صور القرآن الكريم، كلما تأملتُها أخذني العجب؛ هذه الأعضاء التي نحسبها قِطعًا منا، خاضعة لنا يمكن أن تنقلب يومًا بأمر الله أشخاصًا منفصلة عنا، تحاسبنا وتشهد علينا! ... من هذا القبيل أيضًا مخلوقات الكاتب التي تخرج من رأسه ... ماذا يكون الحال لو أن الله أمرها أن تنقلب أشخاصًا حية، تسعى إلى صاحبها وتحاسبه وتطالبه؟!

تخيلتُ هذه الفكرة ... وتصورتُ الله تعالى يريد أن يُنزل نقمته بمؤلف، يفاخر بأشخاصه الأحياء في الكتب كما يزعم، فينفخ فيهم الروح ويُنهضهم أحياء على الأرض حقيقةً، ويدفعهم إلى مؤلفهم يسألونه أن يرزقهم!

تمثلتُ نفسي عندئذٍ في موقف ذلك المسكين ... وطفقت أحصي عدد أشخاص قصصي. أحصيتهم لأول مرة فإذا هم يبلغون الثلاثمائة عددًا ... فيهم الملوك والوزراء والأطباء والمحامون والمهندسون واللصوص والشحاذون والخدم والمتسولون ... إلخ.

لو أني تعرضتُ لغضب الله، فأحيا هؤلاء، فما أشعر ذات يوم إلا وثلاثمائة شخص يبحثون عني، ويطرقون بابي، ويطلبون مقابلتي ... ماذا يكون موقفي؟!

سأذعر من غير شك ... ولكن المسألة ستزداد حرجًا عندما يقولون لي: رتِّب لنا أمور معاشنا!

– أنا أرتب لكم معاشكم؟!

– ومن غيرك يصنع لنا ذلك؟ ألسنا مخلوقاتك؟!
– مخلوقاتي؟ هذا صحيح ... ولكن ...
– نحن جائعون ... نريد أن نأكل ... أليس عندك طعام؟
– طعام؟ لثلاثمائة شخص؟! من ذا يستطيع أن يملأ بطونكم هكذا دفعة واحدة؟! ولا مطاعم الشعب!
– وما العمل؟ نحن الآن جائعون!
– وما دخلي أنا؟
– أنت الذي أوجدتَنا!
– يا للمصيبة!
– أعطِنا نقودًا ... وكل منا يشتري الطعام الذي يحلو له ... أليس معك نقود ... ذهب ... فضة؟!
– ذهب ... فضة؟! أنا أوزِّع عليكم ذلك ... وأنتم جيش جرار؟ أتظنون أني جالس على خزائن الدولة!
– ابحث لنا إذن عن أعمال! ضعنا في أعمالنا ووظائفنا ونحن ندبر أمورنا!
– وظائفكم وأعمالكم؟ ماذا تقصدون؟
– الملوك منا ضعهم على عروشهم، والوزراء في مناصبهم ... والأطباء والمهندسون والمدرسون ... كلٌّ في عمله.
– ما شاء الله! أين هي العروش والمناصب التي أستطيع أنا أن أضع فيها حضراتكم!
– وما الذي تراه لنا الآن؟
– لا شيء ... أن تتركوني وشأني ... وأن تعودوا من حيث جئتم.
– هذا مستحيل ... نحن الآن أشخاص أحياء ... ولا نعرف في هذه الدنيا أحدًا غيرك ... أنت المسئول عن رزقنا ...
– ما هذه الكارثة يا ربي! ... لو كنتم واحدًا أو اثنين أو ثلاثة لتحملتكم وأمري إلى الله ... ولكنكم جيش ... جيش ... آه ... ما أسعدك يا من لم تؤلف غير كتاب واحد!
– أسرع ودبِّر لنا الرزق ... نحن جائعون!
– لا شك أن هذا نوع من الجحيم للمؤلفين ... كما أن شهادة السمع والبصر والجِلد نوع من العقاب للكافرين.
– نحن جائعون ... نحن جائعون!
– صه! أتريدون أن تأكلوا؟

– نعم ... نعم ... نعم.

– لا توجد غير طريقة واحدة: الأطباء منكم والمحامون والمهندسون والمدرسون ... ربما وجدت لهم أعمالًا ... أما الملوك والوزراء والعظماء والمتشردون والمتسولون، فلا أمل في إطعامهم إلا من إتاوة يدفعها من وجد عملًا ... رضيتم بهذا الحل؟

– رضينا.

– بقي شرط ... ما مصلحتي أنا ... في أن أتجشم المتاعب في سبيل رزقكم! ماذا تصنعون لي في مقابل تدبيري لأموركم!

– نُسبِّح بحمدك!

– كلا يا حضرات الأفاضل، أنا لا أطمع في الحمد والثناء ... ولكني أطمع في أن تساوُوني بالمتشردين والمتسولين والعظماء والوزراء! أي تدفعوا لي إتاوة عن كل رأس يعمل!

– لك ذلك ... نحن مخلوقاتك ... شغِّلنا وخذ ما شئتَ من أجرنا!

– افرضوا أني لم أجد لكم اليوم في زحمة الحياة الحديثة، أعمالًا محترمة ... ما المانع في أن أنتفع بعددكم الكبير وأؤجركم جملة.

– تؤجرنا؟

– أنفارًا في ترحيلة جمع الدودة أو جني القطن، أو نقاوة الأرز أو حصد القمح!

– نحن أصحاب المناصب العظيمة والمؤهلات الباهرة والمواقف البارعة ...

– هذا كلام أنا الذي قلتُه في ساعة طيش ولحظة خيال ... ولكنكم الآن أجسام حية تريد أن تأكل ... أتريدون أن تأكلوا أو لا تريدون؟

– نريد أن نأكل.

– إذن انسوا الماضي ... ودعوني أشغِّلكم في أي عمل ... وأؤجركم بأي أجر!

– أجِّرنا!

– ولي الإتاوة؟

– ولك الإتاوة!

– اتفقنا ... هذا عمل لا بأس به ... لو عرفتم مشقة التأليف وقلة انتشار الفكر لأيقنتم أن تأجيركم أنفارًا في الحقل، قد يربح أكثر من بيعكم كتبًا!

إذا وقع الأمر حقًّا على هذا النحو الذي هيَّأه لي خيالي، لما كان في الأمر ضرر ... إني مستعد أن أرزق وأرتزق من هذه المخلوقات! ولكن من يضمن لي المسألة بهذه السهولة، وأنهم

سيطيعون ويدفعون إلى النهاية ... خير لي أن أسأل الله أن يكفيني شرهم، وأن يقصيهم عني، ولا يُعرفهم عنواني!

(أخبار اليوم ٦ أغسطس ١٩٤٩م)

جنون وجنون

هنالك نوعان من الجنون في الإسراف والإنفاق يلحقان الإنسان: النوع الأول يراه الناس مُمثلًا في شخص ذلك الذي يبذل الأموال الطائلة عن طيب خاطر من أجل اقتناء مجموعة نادرة من طوابع البريد أو السجاجيد أو اللوحات الفنية أو التحف الأثرية ... إن الناس — ولا سيما الورثة منهم — ينظرون إلى ألوف الجنيهات تذهب في هذه الأشياء التي لا نفع فيها ولا فائدة منها، فيهزون الرءوس أسفًا ويتهامسون!

– جنون! سفه! ألا يستحق هذا المبذر أن يُحجر عليه؟

أما النوع الآخر من الجنون، فيتمثل في شخص ذلك المقامر، الذي يُلقي بأكوام الذهب على المائدة الخضراء، فتبتلعها في طرفة عين ... مائدة بريئة المظهر، ولكن لها فمًا مثل فم البحر الأبيض والبحر الأحمر ... تغيب فيه الألوف والملايين في سرعة البرق ... دون أن يظهر على وجهها الأخضر موج ولا زبد.

هذا المقامر أيضًا مجنون ... ولكن العجيب في أمر الناس أنهم لا يقسون عليه في النقد، كما يقسون على الأول ... لعل السبب هو أنهم يأملون معه أن يربح يومًا فيعوِّض ما خسر.

ولكن الذي يحدث في النهاية يدعو حقًّا إلى العجب! يموت المبذر الهاوي، تاركًا مجموعاته وتُحفه التي زعم الناس ألا نفع فيها ... فيأتي الخبراء والمُثمِّنون والمشترون فيعرضون على الورثة فيها من الأثمان أكثر مما تستطيع أن تذهب الظنون ... وإذا الورثة يجدون أنفسهم فجأة أمام كنز عميق برَّاق قد فُتِح ... ثم يموت المقامر المغامر ... وتُجرَد تركته، فإذا المائدة الخضراء قد ابتلعت في جوفها آخر مليم في خزانته ما ربحه منها وما ادخر ... لأنها لا تعطيك اليوم إلا لتأخذ منك غدًا ... ومنذ جلستَ إلى صدرها وهي تَعُدُّك عبدها، وتربطك بحبالها وتكتبك عندها — رابحًا أو خاسرًا — في الغارقين.

هذان النوعان من الجنون في الإسراف والإنفاق عند الأفراد لهما مثيل عند الدول.

النوع الأول يتمثل في شخص تلك الدولة التي أولع حكامها بالتحف الثمينة والفنون الرائعة والقصور الفخمة والهياكل الضخمة ... لقد بنى «خوفو» الهرم الأكبر، وأنفق في بنائه عشرين عامًا، وحشد له عشرات الألوف من الصنَّاع والعمَّال والمهندسين والفنانين، فقال الحمقى من المؤرخين: انظروا إلى هذا المجنون المبذر المستبد، الذي أضاع مال الشعب وجهد الشعب ووقت الشعب في شيء لا نفع فيه لهم ولا ربح لهم منه!

ومات «خوفو» ولكن التحفة الثمينة بقيت ... لا أقول ولا أردد فقط ما قالت الأجيال ورددت من أنها بقيت دليلًا على مجد مصر وفنِّها وعلمها ... بل أقول أكثر من ذلك: إن هذه التحفة التي يسمونها «الهرم» قد بقيت للورثة كنزًا ماديًّا نقديًّا يُدِرُّ عليها في كل عام منذ عشرات الأعوام مالًا وفيرًا؛ يأتي به السائحون من أركان الدنيا الأربعة! ما أنفقه «خوفو» من مال جناه الورثة أضعافًا مضاعفة على مرِّ الأجيال ... ولن نفرغ بعدُ من تحصيل الأرباح ... بل لعلنا في مستقبل أيامنا يوم نعرف كيف نعرض كنوزنا ونجتذب السياح ونُكثِر لهم من الطرق والفنادق والملاهي ووسائل الراحة، تتفتح لنا من الموارد ما لم يخطر على بال أجدادنا من خوفو إلى ابن طولون!

رأيتُ بذخ ملوك فرنسا في «فرساي» منذ أسبوع: أي فن في التصوير والنحت والنقش على الحائط والسقف والحجر والبرونز والقماش والسجاد، ذلك البذخ الذي أدَّى إلى الثورة الفرنسية؛ لأن الشعب لم يكن يدرك وقتئذٍ أن هذه الكنوز هي له دائمًا في آخر الأمر. إن الورثة دائمًا متعجلون ... ولكن هذا الشعب اليوم يدرك ويحمد ويشكر ... وها هي ذي مقالة للمؤرخ الفرنسي المعاصر «بيير جاكسوت» نشرها منذ أيام يقول فيها: «شكرًا أيها المبذرون! جنيهات، دولارات، فرنكات بلجيكية، فرنكات سويسرية ... كلها تتدفق الآن إلى خزائن «بنك فرنسا»! ... لا مشروعات الخبراء الماليين ولا تقارير العلماء الاقتصاديين ولا التزام التقشُّف والحرمان ... لا شيء من هذا كله استطاع أن يُصلح مركز فرنسا المالي.

ولكن الذي استطاع ذلك هو أحجار قصورنا ومتاحفنا وكنائسنا. شكرًا يا فرنسوا الأول! شكرًا يا لويس الرابع عشر! شكرًا يا بابوات أفينيون! شكرًا أيها الكرادلة والنبلاء والمحظيات! إنكم جميعًا تساوون اليوم ثقلكم دولارات؟ بفضلكم أنتم سيعيش شعب فرنسا هذا الشتاء عيشًا رضيًّا. إنكم أنتم بتُحفكم وقصوركم وآثاركم أثمن من أي سند من سندات البورصة، وأثبت من أي عملة من عملات الأرض ... أنت «السند» القوي الذي لا يهبط سعره أبدًا في سوق ... ويدفع «الفائدة» في الميعاد!

لو عقلت الشعوب لأدركت أن «الفن» مهما يُبذل فيه هو أقل الموارد القومية نفقةً وأكثرها إدرارًا للربح؟

هذا هو ما يسمونه جنون التبذير في التحف والفنون عند الدول! أما النوع الثاني من الجنون؛ وأعني به جنون المقامرة والمغامرة ... فيتمثل عند الدول في الحروب؛ الحرب هي قمار الدولة ... إن جبال الذهب التي تبتلعها هذه «الموائد الخضراء»، أو على الأصح «الميادين الحمراء» لا يمكن أن تقف عند حد، ولا يمكن أن يبقى لها أثر ... لا للمهزوم ولا للمنتصر!

أين انتصارات رمسيس الثاني وفتوحه في الشرق والجنوب؟ أين انتصارات نابليون وفتوحه في أوروبا؟

أموال أُنفقت ودماء استُنزفت ابتلعتها كلها «الميادين الحمراء» ولم تترك للورثة بعدئذٍ موردًا يُطعمهم في الأيام السوداء!

لكن ... يا للعجب! جنون الفن هو الذي يسخر الناس دائمًا منه، وهو كنزهم الذي فيه لهم ولأبنائهم مجد ومورد وطعام.

وجنون القمار هو الذي يغضُّون عنه أو يهللون له، وهو جحيمهم الذي فيه لهم فناء ولأبنائهم هباء.

(أخبار اليوم ١ أكتوبر ١٩٤٩م)

هنداوي